ممدوح عدوان
قصائد

خارجي قبل الأوان

اختيار وتقديم: صبحي حديدي

كل جيل عبر المحنة بين الموت والموت
لكي يثبت للأرض الولاء
تلك كانت محنة العمر التي لا تشتهي للفقراء
يذبلون العمر في الجوع وفي النسيان لكن..
بعته في محنة الحرب عيون كنحل
لسعة تمرعيون
ويبقى في خلايا العسل اليعسوب
والطحلب في الحقل
وفي المقهى يظل المخبرون

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

ممدوح عدوان

خارجي قبل الأوان

مختارات شعرية

اختيار وتقديم:

صبحي حديدي

خارجي قبل الأوان



خارجي قبل الأوان - مختارات شعرية

تأليف: ممدوح عدوان

اختيار وتقديم: صبحي حديدي

التدقيق اللغوي: عمر الخولي

الإخراج: فايز علام

تصميم الغلاف: منير الشعراني

ISBN: 978 - 9933 - 540 - 26 - 5

الطبعة الأولى: 2017

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH fb.com /Adwan.Publishing.House

خارجي قبل الأوان

صبحي حديدي

حين رحل ممدوح عدوان (1941-2004)، الشاعر والمسرحي والروائي والمترجم السوري الكبير، كان أقرب إلى مؤسسة جامعة، شاملة متعددة الأغراض والإنجازات، في فرد واحد. كان مثقفاً رفيعاً، وشخصية عامة، ومشاركاً نشطاً في الحياة السياسية والاجتماعية، تنطلق خياراته من موقع الناقد الحصيف والجسور، وتتكئ على مبادئ معارِضة، تقدمية وعلمانية. وساعة رحيله تساءلتُ شخصياً، كما أفعل اليوم في اختيار وتقديم هذه القصائد: هل من الممكن تخيّل المشهد الأدبي السوري المعاصر، بدون هذا الرجل؟

أرجئ، إلى حين، الحديث عن تجربته الشعرية الثرّة، والزاخرة؛ لأتوقف أولاً عند مساهماته الدرامية المتميزة، في المسرح أساساً، ولكن في المسلسل التلفزيوني أيضاً؛ خاصة وأنه شاطر الراحل الكبير الثاني، سعد الله ونوس، عبء الارتقاء بالمسرح السوري المعاصر، وإطلاق ما يشبه ورشة عمل تجريبية افتراضية، بالغة الطموح، عالية الوعي بما هو ممكن ومطلوب وحيوي. هنا، في صيغة عمل جماعي غالباً، طُرحت الأسئلة الضرورية والجوهرية وغير المألوفة، من جهة؛ ومورس التطوير

في كتابة النصوص، وتنفيذ العروض، وتأصيل التنظير النقدي وتحريضه، من جهة ثانية. وتلك المغامرة الإبداعية، الثقافية والسياسية كذلك، لم تكن ممكنة من دون ونوس في «حفلة سمر من أجل 5 حزيران» و«الفيل يا ملك الزمان»؛ ولا كانت ممكنة، أيضاً، من دون عدوان في «محاكمة الرجل الذي لم يحارب» و«ليل العبيد» و«كيف تركت السيف».

وفي مستوى الوظيفة الاجتماعية والمعرفية والسياسية للإنتاج الثقافي، كان رحيل عدوان قد حرم القارئ العربي من اتصال بالغ الغنى، منتقَى بميزان الذهب، مع التراث الإنساني القديم والحديث والمعاصر؛ عبر تلك الترجمات النوعية التي أنجزها عدوان: «تقرير إلى غريكو»، السيرة الذاتية والفكرية للروائي اليوناني نيكوس كازنتزاكيس؛ أو سفر «الإلياذة»، في مغامرة ترجمة عن الإنكليزية، لعلها الأهمّ بعد ترجمة أمين سلامة عن اليونانية؛ أو ذُرى هيرمان هيسه، «الرحلة إلى الشرق»، و«سيد هارتا» و«دميان»؛ أو أوديسة الشاعر الكاريبي ديريك ولكوت، «عودة أوليس»؛ أو مقالات أوكتافيو باث، «الشعر ونهايات القرن»؛ أو دراسة كيث وايتلام الشجاعة، «تلفيق إسرائيل التوراتية»...

وكان عقد من متغيرات سوريا، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، كفيلاً بإغواء الراحل كي يكتب عملاً ثانياً يصبح توأم كتابه الأثير «حَيْوَنة الإنسان»، 2003؛ وهو مجموعة مقالات حول مقدار ما فقد البشر من كرامة وتضامن إنساني وإحساس بعذابات الآخر، حتى صاروا معتادين على الإذلال المحيط بهم وبغيرهم، وصاروا أكثر استعداداً لقبول التعذيب والمهانة والعنف على شاشات التلفزة، وبالنقل الحيّ المباشر. تلك الحزمة من المقالات كانت ساخنة، تنبض بالسخط والاحتجاج والأسى، ابتداءً من عناوينها: «ورطة الإنسان الأعزل»، «هل نحن جلادون؟»، «صناعة الوحش... صناعة الإنسان»، «ولادة الوحش... بين الجلاد

والضحية»، «القامع والمقموع»، «أصل العنف»، «الدولة القمعية». وثمة فصل بعنوان «السلبطة السلطوية»، كُتب قبل اندلاع الانتفاضات العربية، لكنه بعدها اكتسب دلالات بالغة الخصوصية، لأنه ببساطة أثار شخصية «البلطجي» و«الشبّيح»، وأدوار كلّ منهما في تحريك آلة القمع، ورسم لكلّ منهما قسمات مفصّلة جعلت المقالة معاصرة تماماً، تكاد تصف بدقّة عالية ما فعله «البلطجية» في مصر، وما فعله ويفعله «الشبيحة» في سورية.

ثمة، أيضاً، تأملات عدوان النقدية كما تتجلى في كتابه «هواجس الشعر»، الذي صدر سنة 2007، ويكشف عن سمة معرفية خاصة في شخصية الراحل، من حيث الإفصاح عن آرائه في الشعر والأدب عموماً؛ وكذلك ذائقته، وعدّته التحليلية. ثمة شهادات حول عدد من الشعراء، السوريين والعرب، أمثال علي الجندي ومحمد عمران وشوقي بغدادي وعبد الله البردوني وعرار (مصطفى وهبي التل) ونديم محمد ونزار قباني (وعنه يقول عدوان، في عبارة مدهشة: «لقد تحوّل إلى متراس عنيد أمام مَنْ يرون في الحداثة تغريباً للفنّ عن الناس وتضييعاً للمعنى. ودعا إلى الشعر الذي يتحوّل إلى قماشة شعبية يستطيع الناس كلهم أن يتداولوها ويلبسوها»)، ومحمد الماغوط وسنية صالح ولقمان ديركي، ونازك الملائكة وبدر شاكر السياب وأمل دنقل وبدوي الجبل.

وتلك الشهادات تنطوي على الكثير ممّا هو رفيع نقدياً، ومميّز معرفياً، وشجاع فكرياً، و... طريف إنسانياً أيضاً! هنا، مثلاً، ما يقوله الراحل عن شعر رضوان السح (شاعر سوري شابّ قدّم عدوان لمجموعته الأولى «طفل المعاني»): «هل تحبّ أن تأكل اللوز الأخضر؟ تتذكّر «قرشته» الغضة تحت الضرس؟ وحموضته الطرية التي يتحلب لها اللسان؟ هناك من لا يحبّون اللوز الأخضر. ينتظرون اللوز اليابس، اللوز الذي يُقدّم محمّصاً على الموائد. ولكن اللوز الأخضر لا بدّ منه (...) هو ذا شعر مثل

اللوز الأخضر. شعر فيه حموضة طرية يتحلب لها اللسان وله قرشة غضة. شعر فيه عذوبة أن تكتب، أو تقرأ، شعراً. وفيه بساطة، وروعة، أن تكون شاعراً، أو أن تتعامل مع الحياة بالشعر، وأن تراها بعين الشاعر».

ولكن، إلى جانب هذه الشهادات، ثمة عشر مقالات لامعة تماماً، ونقدية في أرقى ما تحمل المفردة من معنى، حول معنى الشعر، ونظرية الشعر، وأشكال الشعر، وأقدار الشعر إبداعاً وقراءة واستقبالاً. الموضوعات، كما تشي بها العناوين، تتناول هواجس الشعر (حول النشيد والإنشاد في أصل الشعر، طفولة الشاعر والشعر، الوزن والإيقاع، القول والمعنى، شعرية النثر...)؛ الوجه الآخر للتطور الشعري (في ضوء اعتبارات قديمة ومستجدة، مثل الاستماع والإلقاء والطباعة والمعلوماتية، وما إذا كان الشعر مقروءاً أم منطوقاً أم مرئياً)؛ هل مات الشعر؟ لماذا يجب أن يموت الشعر؟ وكيف يمكن توصيف أزمة الشعر؟

وبذلك فإنّ استكشاف عدوان، الناقد الأدبي، لا يستكمل ارتسام صورته الحاشدة لتوّها بالتفاصيل، فحسب؛ بل يفتح الصورة ذاتها على مزيد من العلائم والقسمات، خاصة تلك التي تُظهر دأب الراحل على توصيف أواليات الاستبداد والفساد؛ من قبائح التشبيح، إلى أكاذيب... نشرة الأحوال الجوية!

* * *

القصيدة الأولى في «الظلّ الأخضر»، 1967، أول إصدارات عدوان وباكورة مجموعاته الشعرية، تحمل عنوان «رُويَ عن الخنساء»، وتصلح فاتحة لتلمّس عدد من خصائص تجربة شعرية بالغة الثراء والخصوبة؛ سوف تتنوّع وتتطوّر وتتقلّب مراراً، على امتداد أطوار زمنية مختلفة، وخيارات متباينة في المحتوى والشكل. ولسوف تحتفظ قصائد عدوان

بالكثير من روحية تلك الخصائص، على نحو جلي وديناميكي يتيح الافتراض بأنّ حصيلتها تستكمل ما يشبه البصمة الأسلوبية الفارقة، التي ندر أنها غابت عن أيّ من المجموعات الـ19 التي صدرت للشاعر.

مستهل تلك القصيدة الأولى يسير هكذا:

تُبحّ حناجر النُدّاب من ندم بعاشوراءْ
بهيم النهر كالمجنون، والتمساح يسكب فيه أدمعه
ويملأ جوفه المسعور بالحمأ
ولكنّ القتيل بكربلاء يموت وسط النهر من ظمأ
وآلاف الحناجر كل يوم تتخم الدنيا
تؤذن للصلاة وللفلاح... ولا يمرّ الصوت في الصحراء
ينبّه غافلاً يقضي... ولا يدري
بأنّ الفقر في الملأ
وأنّ النار في الدهماء
ويأبى أن يمرّ الصوت في الصحراء
يودّع جثة كانت أبا ذرٍّ
لأنّ الصوت قد تمتصه الرمضاء.

أولى تلك الخصائص أنّ عدوان كان صانع مناخات رعوية بامتياز، لا تقتصر بصفة أثيرة على نقل مشهدية ريفية أو قروية أو حتى بدوية، في المستوى الوصفي أو الإيحائي أو الترميزي؛ بل تنسج شبكات متعددة الدلالة، متنوعة المكوّنات، متقاطعة المعجم (كما في امتزاج عاشوراء، النهر، التمساح، كربلاء، الظمأ، الحناجر، الصلاة، الصحراء، الملأ، الدهماء، أبي ذر، الصوت، الرمضاء، وما يقترن بها من صفات وإحالات...)؛ تنتهي، في حصيلتها، إلى ترسيخ «نبرة» تمرّد واحتجاج،

وحسّ صعلكة عصيانية، لا تليق إلا بالنأي الرعوي، في أصفى تمثيلاته الشعورية.

والرعوي هنا هو، أيضاً، نقل اللغة الشعرية - في مستوياتها المجازية والبلاغية والسياقية، وكذلك على صعيد تركيب الجملة من حيث انقساماتها الاسمية والفعلية - من حال فصحى عالية مشبعة الشعرية (ظلت، على الدوام، ملك يمين عدوان)، إلى حال مشافهة حارّة زاخرة، مشبعة الشعرية بدورها؛ لكنها تتوخى البرّي والخشن والصادم، العذب مع ذلك حتى حين يذهب إلى أقصى الجَرح والانتهاك. في «العائد»، من مجموعة «الظل الأخضر»، يتولى تشديدُ النبرة الإيقاعية مهامّ تخليص اللغة من بعض مخزونها التصويري الوفير (جنون البحر، سوط الشمس، تيه الصحارى، حبل مسرّة...) عن طريق قرائن مشافِهة، ملموسة، ومادية (مجرة، مجنون، عش، قش...)، وتصعيد الغنائية بضمير الجماعة.

والرعوي، عند عدوان، ثالثاً، هو سياسة الهزيمة وشيوع الردّة وتجليات الانتكاس ومظاهر الخيانة، وهذه تتخذ هيئات شتى، مفاعيلها الأبرز تتأطر في الحاضرة المدينية (كربلائية، ليس بأي معنى ديني أو مذهبي، بل بمعنى الرثاء الكوني العميق؛ وعاشورائية، ليس بمعنى اللطم والحسرة وعقاب الذات، بل بمعنى ندب التخلي والتنازل والخيانة؛ ومرتسمة في مشهد طبيعي، كما في «تراب أجرب» يتهادى فيه بردى، حتى تنحسر ذاكرته أمام الشيراتون...). ذلك كله لا يجبّ حضور إطار نظير يخصّ فساد الريف أيضاً، في قصيدة «الراعي الكذاب» من المجموعة الأولى ذاتها، مثلاً؛ أو «الميريديان/ سبحان الخالق سبحان/ أعلى من مبنى الأركان»! ولعلّ قصيدة «قيرون»، من مجموعة «وعليك تتكئ الحياة»، تعكس هذا البُعد الثالث على نحو فسيح عريض تمتزج فيه سلسلة متشابكة من سمات البُعدَين، الأول والثاني. ذلك لأنّ قرعون، قرية الشاعر، تستطيل وتتعاقب

وتنوّع، في حركية المحتوى والشكل، حتى تنقلب أقسامها العشرون (حيث تتناول عناوينها القمر، والشجر، والتعّيب، والجدّة، والجبل، والصبية، والصخور، والساقية، والجنية، والثعالب، والقرية، والريح، والشتاء، والبيادر، والمكان، والمعاصي، والتنور، والولد، والخنزير، والطيران)، إلى ميدان بانورامي لاحتشاد الرعوي بالملحمي هذه المرّة.

والرعوي في قصيدة عدوان المعيارية هو، رابعاً، النأي بالمشهد عن تفاصيله الطبيعية وما تستدرجه من إغواء الوصف والانفعال والعاطفة والتخاطب، في المكان والزمان والسياق، مع ذات الشاعر أوّلاً، ونظائرها الافتراضية لدى القارئ ثانياً؛ والاقتراب، في المقابل، من تكوين تشكيلي حيوي، بشري بقدر ما هو طبيعي، يحتمل الذهني والمجرد والنوستالجي، مثلما ينهض على الملموس والعياني والتسجيلي. كثير من هذا المزيج الفريد توفّره قصيدة «رعويات»، من المجموعة ذاتها، على سبيل المثال فقط، وليس دون دلالة خاصة أنّ عدوان اختار لها هذا العنوان تحديداً؛ حيث تتألف القصيدة، الطويلة، من تسع قصائد فرعية، تسير عناوينها هكذا: ليلة باردة، جموح، نوستالجيا، الغيم، موال، الينبوع، خجل، صطوف، أم عبد الكريم. حسّ المكان هنا لا ينفصل البتة عن حياة الكائن فيه، كما أنه لا يغادر مؤشرات الزمان في مدلولاتها الوجودية، بشراً وحجراً ونباتاً ومنظراً، على أصعدة بصرية مركبة دائماً؛ فضلاً عن ألعاب الشكل الكثيرة (الموّال والرباعية، وتنويع التفاعيل، معمار الإيقاع، نقلات القافية...)، التي تُوظَّف ببراعة كي تنقل القصيدة من مناخ رعوي إلى آخر.

ثانية الخصائص في قصيدة عدوان أنها نابشة إحالات تاريخية وأسطورية وتراثية كانت، وعلى نحو مبكر بدأ منذ المجموعة الأولى، تتولى عبء تظهير الواقع الراهن ومنحه صفة تاريخانية، بمعنى ردّ الظواهر الحاضرة إلى سيرورة تطوّر جدلية، وليس استعادتها في واقعة، أو استلهام

شخصية، أو تثمين قيمة؛ لكي تُجرّ بصفة جامدة من الماضي فتُرشق على الحاضر، كما هو مألوف في كثير من تجارب الاقتباس والتضمين. وفي قصائد لاحقة، سوف تتراجع رموز كربلاء وعاشوراء، ويمكث أبو ذر قليلاً، لتتقدم رموز مثل دمشق والقنيطرة وفلسطين وتدمر؛ ثمّ وحشي والخنساء والحطيئة وأسماء بنت أبي بكر وطارق بن زياد، وكليب والبسوس ومتمم بن نويرة؛ ثمّ نسيمي (شاعر صوفي اتُهم بالإلحاد وحكم عليه بالسلخ حياً في حلب) وجلال الدين الرومي ودون كيشوت وغيفارا؛ وصولاً إلى غسان كنفاني وأمل دنقل وغالب هلسا وعلي الجندي وحامد بدرخان وعلي كنعان؛ فضلاً عن ثورة الخوارج وثورة الزنج...

جانب آخر في هذه الخاصية الثانية أنّ عدوان أفلح، على امتداد كامل عقود تجربته الشعرية، في الإفلات من تلك المصيدة السهلة التي انساقت إليها مشاريع الستينيات الشعرية؛ وحدث أنها اقترنت بإغواء هائل السطوة، في أنها كُرّست كبصمة فارقة للانتساب إلى الحداثة. تلك المصيدة كانت الانسياق خلف الرموز والأساطير الغربية، الإغريقية خصوصاً، من جهة أولى؛ أو، من جهة ثانية، الانجرار بشدّة إلى، وتكرار واستنساخ، الأمثولة التموزية في تنويعاتها المختلفة، عند شعراء اليسار (بدر شاكر السياب، عبد الوهاب البياتي، سعدي يوسف...)، أو الاتجاهات القومية (السورية – الاجتماعية عند أدونيس وتوفيق صايغ، أو العروبية عند خليل حاوي وأحمد عبد المعطي حجازي)، أو المصرية – الزنوجية (صلاح عبد الصبور ومحمد الفيتوري...). ذلك كله، على الرغم من أنّ عدوان استطاب – في المقابل، على سبيل النقائض ربما – اجترار الشخوص النضالية التي شاعت في الشعر الملتزم، كما أسقط على شخوص تراثية سمات كفاحية تردد أصداء الحاضر.

جانب ثالث تصنعه مهارة عدوان الفائقة في الإفلات من إغواء آخر،

ذي طابع مختلف تماماً، ولكنه ليس أقلّ سطوة أو أضعف جاذبية: تحويل الشخوص أو الرموز، أو حتى الأساطير النادرة التي توفرت في شعره، إلى أقنعة، على غرار سلسلة التجسيدات والتقنيات التي يستولدها استخدام تقنية القناع في الشعر. وسائله في هذا متعددة، أو هي بالأحرى مركبة، يمكن أن تبدأ من إدارة حوار داخلي مع الشخصية، لا تغيب عنه صفة الحوار مع الذات، عند تخوم ما يُعرف بـ«المونولوج»؛ كما في «قصيدة يوسف»، من مجموعة «للريح ذاكرة... ولي»، حيث يمزج الشاعر بين ضمائر المتكلم والغائب والمخاطب، ثم العبور بين الأزمنة والأمكنة، لتشكيل حوار متعدد المستويات يجنّبه الوقوع في إسار القناع.

وسيلة أخرى في هذا الجانب تتضمن تشديد النبرة الدرامية، وعدوان في هذا متمرس حاذق، بما يتيح إخضاع الأصوات داخل القصيدة إلى سلسلة تحولات عميقة، في إطار دلالة الشخصية ذاتها كما في محمولاتها الرمزية؛ وذلك عبر ترقية ضمير المتكلم إلى مستوى الجوقة، في أفضل تمثيلاتها الإغريقية الكلاسيكية، التي لا تعلّق على المعنى والسياق والمناخ في القصيدة، فحسب؛ بل تتولى تظهير الشخصية، واستبعاد احتمالات طغيان القناع عليها، كما على الشاعر، سواء بسواء. الأمثلة، على هذه الوسيلة، عديدة وافرة، بينها قصيدة «رحلة دون كيشوت الأخير»؛ حيث يُجري عدوان حواراً بين الفارس الإسباني وتابعه سانشو بانزا (حول معنى الفروسية، أو ابتذالها بالأحرى، في عصر «طواويس السلطان» و«الأمراء الغلمان»، و«الكلمات العاهرة»، و«دنيا تمشي بالمقلوب»، و«صيارفة الأوطان»...)؛ وإعادة تأطير الحوار ضمن انزياحات مختلفة المغزى، كي يتقاطع في الخلفية مع حوار بين علي بن أبي طالب وأبي ذر الغفاري حول الحقّ والباطل.

ثالثة الخصائص تصنعها القصيدة السياسية، أو بالأحرى ميل عدوان

الدائم إلى «تسييس» موضوعات قصائده بالمعنى الأوسع نطاقاً، وبالتالي الأشدّ تشعباً، لمفهوم السياسة. هذا يعني، في المقام الأول، أنّ جماليات القصيدة عند عدوان ليست، البتة، مترفعة عن هواجس السياسة، أو الاجتماع السياسي في معنى أدقّ؛ ابتداءً من مختلف أزمات الحياة اليومية، مروراً بمشكلات الحرّية والتحرّر والتحزّب والانحياز، وليس انتهاءً بالقضايا الكبرى المحلية والوطنية والكونية. كما يعني، في مقامٍ تالٍ، أنّ الواقعة الفعلية المرتبطة بالبشر، وبطبقاتهم وآلامهم وآمالهم، تتحلى في ذاتها بمقدار كافٍ، أو عالٍ أيضاً، من الدلالة القِيَمية، أمام أيّ وكلّ دلالة جوهرانية أو كونية أو طبيعية. وبذلك فإنّ التاريخ، في الشعر تحديداً، لا يعمل على صعيد استثارة العاطفة والوجدان، والتفنن في البلاغة والجماليات، وما إلى هذه وتلك، فقط؛ بل هو أداة جبارة لاستكشاف العالم، الداخلي والخارجي معاً، ولتجسيد حاضره واستشراف مستقبله، ضمن منظورات «أدبية» شتى، لا مناص لها من إدراج السياسة والتسيّس والتسييس.

في قصيدة «أمام الشرتون»، على سبيل المثال الأوّل، ثمة نزاع ـ يكاد أن يكون وجودياً، على أكثر من نحو! بين نهر بردى والفندق الفاره، في قلب دمشق؛ حيث تنتهي المواجهة هكذا: «والنهر الجبلي المربوط أمام الفندق/ ينهار بكاء/ فتسيل دموع النهر بمجراه الباقي/ تتوكأ ضفته في إعياء/ وتُساق لغسل مراحيض الأمراء». بردى ذاته، في مثال ثانٍ من قصيدة أخرى تحمل اسمه، يبدو أشبه بمواطن سوري اعتُقل وعُذّب وصودرت هويته وغُرّب عن أهله وموطنه وذاته: «قسموه سبعة أنهر/ في كلّ نهر عذّبوه/ وجرّحوا بالحقد خدّيه/ قلعوا أظافره، وما تركوا على كفّ له إصبع/ فصدوا دماه وأبعدوها/ في كلّ مجرى جففوه، وجرّبوا بالسرّ إحراقه/ حقنوه بالأقذار/ دسّوا فيه ذاكرة بلا ذكرى/ دسّوا عليه هوية أخرى...».

وإذْ أدرك عدوان أنّ بعض ضرورات هذا التسييس يمكن أن تفضي، في كثير أو قليل، إلى جرعة من الجموح الشعاراتي، ومجازفة نهوض البنية الشعورية في القصيدة على نبرة اللافتة السياسية المعارضة تارة، أو البيان الاحتجاجي التحريضي طوراً؛ فإنّ سلسلة الحلول الفنية التي انتهجها، لدرء هذه الأخطار، لم تكن من طراز «كلاسيكي» انتهجه معظم الشعراء الكبار المنخرطين في تسييس الشعر (على شاكلة و. ب. ييتس وإزرا باوند، في الشعر الإنكليزي؛ وبوا إيلوار ورونيه شار في الشعر الفرنسي؛ ومحمود درويش وأمل دنقل في الشعر العربي...)، فحسب، هنا أيضاً؛ بل لقد جعل من تلك الحلول كتلة خيارات تعبيرية قائمة في ذاتها، تضيف إلى، وتغني، بصمته الأسلوبية الإجمالية الفارقة.

بعض هذه الحلول يمكن تلمّسها في السمات التي عُرضت أعلاه، لجهة تشديد النبرة الدرامية، والإفلات من تحويل الشخوص والأساطير إلى أقنعة، واعتماد تكوين بشري تشكيلي يحتمل الذهني والمجرد والنوستالجي ولا يتنافر مع الملموس والعياني والتسجيلي... حلول أخرى تصنعها اللغة الشعرية ذاتها، من حيث أنها تقيم موازين تبادلية دقيقة بين إطلاق المشاعر والأحاسيس، أو ضبطها وأحياناً كبحها عند حدود الإيعاز السياسي، ليس - في الحالتين معاً، وهنا براعة الشاعر - دون اجتراح درجات عالية من التوتر بين الذهني والواقعي، المجرد والملموس، المجازي والتقريري. ولقد بات من المسلّم به، على نطاق واسع في علم النفس الإدراكي، أنّ اللغة الشعرية ذات الانهماك الجمالي (في الاستعارة والتصوير والمجاز عموماً، وفي تغريب المفردة عن جذورها القاموسية، وفي ابتداع التشكيلات الإيقاعية وتنويعها وحسن توظيفها...)؛ تمارس سطوة عالية تماماً في الشحن الوجداني للمادة المسيّسة، وفي توطيد الدلالات والرسائل السياسية غير المباشرة.

وليس غريباً أنّ القصيدة الطويلة هيمنت على المجموعات الأولى، مقترنة دائماً بالموضوع السياسي والطبقي والثوري؛ وأنّ المجموعات الأخيرة شهدت هيمنة القصيدة المتوسطة، أو القصيرة نسبياً، حيث الموضوع الوجداني والغنائي والبوحي، وعقابيل اعتلال الجسد وخيبات الروح وضغوط الشيخوخة و«كتابة الموت» كما أسماها. ولقد كان لافتاً أن يجرّب عدوان كتابة قصيدة النثر، في مجموعة «حياة متناثرة» بصفة خاصة (التي قدّم لها محمد الماغوط!)، وأن تحفل هذه القصائد بما يتيحه الشكل من سيولة في التعبير عن هوامش الحياة اليومية؛ الأمر الذي لم يكبح جماح الشاعر في تناول الموضوع السياسي، ليس على الإطلاق بأية درجة أدنى من الحرارة والإقبال!

كذلك لم يكن مفاجئاً أنّ الموضوع السياسي هيمن على «قصيدة (هناك)»، أطول قصائد عدوان في مجموعته الأخيرة «قفزة في الهواء»؛ وأن تشتغل في هذا النصّ، الوداعي على نحو ما، «مطحنة» أساليب الشاعر إجمالاً، وحلوله الفنية لتذليل المادة السياسية خصوصاً:

ما بين معترك الطغيان والهمج
خمسون ألف قتيل شِلتُ في مهجي
هذي بقية ما أبقى الطغاة لنا
هي القتيل بلا ذنب ولا حرج
وما الذي تفعله خمسون ألف قطرة من المطر!
أحاول الجواب: يحدث الطوفان
وما الذي تفعله خمسون ألف زهرة
إذا اختفت من جنة الله الجليل!
أحاول الجواب: تستحيل صحراء بلا سكان
وما الذي يفعله خمسون ألف رجل قتيل!

أحاول الجواب: يعتلي على أشلائهم عرش
ويزدهي به الطغيان.

* * *

هذه المختارات رأت النور استجابة لرغبة عامة، ولدافع شخصي: أن تُقترح على القارئ العربي نماذج من شعر عدوان (وتلك كانت رغبة الصديق مروان عدوان، نجل الشاعر ومدير «دار ممدوح عدوان»)؛ وأن أجد الفرصة لتثمين، وإنصاف، تجربة شعرية ثرّة وكبيرة (وهنا الدافع الشخصي).

وإذا كان ما اخترته قد نهض على مزيج من ذائقة شخصية، وقناعة - سعت أن تكون موضوعية، ما أمكن الأمر - بأنّ هذه النماذج جديرة بتعريف القارئ العريض على شخصية عدوان الشعرية؛ فإنّ ما يستوجب الإيضاح، أيضاً، هو أنّ اختيار قصائد دون سواها خضع لعامل تقني محدد: أي الاستعاضة عن القصائد الطويلة، لصالح تلك المتوسطة أو القصيرة، وذلك لإفساح المجال أمام أكبر عدد ممكن من النصوص المعبّرة عن التجربة، وبما يتناسب مع الحجم المقترح للمختارات.

وعسى أن تفلح هذه المختارات في التذكير بقامة شعرية رفيعة، مثّلها «ابن الحياة الحر»، «المتعالي على التعالي»، المنحني «بانضباط جنديٍّ أمام سنبلة»، والناظر «حزيناً غاضباً، إلى أحذية الفقراء المثقوبة»، المنحاز «إلى طريقها الممتلئ بغبار الشرف»؛ كما عبّر محمود درويش في رثاء عدوان.

باريس، 2016 - 2017

مختارات ممدوح عدوان

اختيار وتقديم: صبحي حديدي

العَائد

ذات يوم
عاد للحيِّ وحيداً
أشعث الشعر،
طويل الذقن،
مخضوباً... مغبَّرْ
لم يدع كرمى لعينيها جحيماً في قتال
لم يدع رعباً طوال الدهر إلا عَرَكَه
قيل: عاد.
فانبرت من بيتها تلقاه
تبكي الفرحة الكبرى بعينيها
وتسكرْ
حضنته:
«يسلم السبع لنا
يسلم الزند ويثأرْ

آه ما أحلى غبار المعركه!

آه كم أعبد أتعاب الرجال!»

حضنته...

حضنته...

تركته...

فهوى:

غرزت في ظهره المتعب خنجرْ.

الجدران

كلّما أوغلتُ في عينيكِ بحثاً عن عزاء
تعتريني رعشةٌ كالموت في قلبي
ويبكي في مآقيَّ الشتاء
تنبع الأصوات حَمرا من شراييني
وشيء مبهم يمتصُّ من حلقي النداء
حوّلي عينيكِ،
إِنَّ الحزن يسري منهما نحوي كتيَّارٍ
ومن دفقاته يهمي الشقاء
وعلى جفنيك يدعوني نداءً
أخرس النبرة سحريَّ الدعاء
وجهيَ المطليُّ بالأتعاب دامٍ
كلَّما حاولتُ أن أخطو إِليكِ
صدَّني سور زجاج.

***

تنبع الأصوات حمرا من شراييني

وشيء مبهم يمتصُّ من حلقي النداء

غير أني سأُنادي

فلعلِّي أُتخم الصمت دعاء

علَّ صوتاً يقحم الأسوار، يسري في الزجاج

يسحب الدهشة من وجهي إِليك

(دهشة دائمة قد غرزت فيه فبانت كالقناع)

وخيول الزمن المجنون هوجاء،

غبار الدهشة البلهاء تذروهُ عليه

لم يجدْ وقتاً لتمسيح الغبار

ذابت الدهشة كالملح وشابت عرق الوجه،

فخلَّته ستار

وجهي المطلي بالأتعاب يهفو ليديك

علَّه يغفو لديك

متعبٌ في صحبتي من أَلف جيل

هائمٌ كالريح من دنيا إِلى دنيا وراء المستحيل

قطرة النوم، إذا جاءته يغفو

مثل لصٍّ هاربٍ يسمع أصوات الكلاب

قبل أَن يستيقظ يعدو

صار لا يغفو، ومثلي لا يفيق

هائم مثليَ في كل طريق... هارب من كل دار

قافز دوماً ورائي من قطار... لقطار

نبتت فيه ظلال السهر الصفراء،

لم تلقَ حصاداً بيديك

عندما يدنو لديك

هارباً مني إِليك

أَمسكيه... واصفعيه

علَّه يصحو قليلاً فينام

قبل أَن يدرك جدران الحصار

***

من ترى أَلقاك في دربي؟

لماذا كلَّما حدّقَتِ في عمريَ، يبكي

في دمي طفل وماض ودوار؟

ذلك الماضي رأَى عينيكِ في حلمي، فأَجشهنا

ولكن لم يكن عندي دموع

حينما نُفجع نشتاق لدمع...

نحن، منذ البدء، للدمع نجوع

غير أن اليوم كالومض يولي

ليته يكفي لبحث وهروب ولذكرى ودموع

آه لو يمتد هذا اليوم ساعات لنكفي ذلك الماضي بكاء

ذلك الماضي رأى عينيك في حلمي ... فثار
شدّني بين يديه...
ثم طار
ورياح الحزن أَدنته إِليك
جاء كي يغفوَ، كي ينحر جيلاً دامعاً بين يديك
غير أن الليل أَقصاه مرار
ومراراً صدَّه عنك جدار

***

مرَّة يوم التقينا...
ومشينا
خلتُ أني أحضن الكون وأجنيك طيوب
فأُضيئت وسط أحلامي دروب
ومشينا... وركضنا
مثل طفلين لنجتاز الصحارى
بغتة... لم أدرِ ما أوقفنا في وسط الدرب حيارى
في ظلام الحيرة البلهاء تاهت كفِّيَ العمياءُ،
كي تسأَل كفّيك طريقاً لكلينا
صرخت في الليل ـ لا صوت لديها ـ
«أترى نحن بعيدان هنا منذ أَتينا؟»

صدَّها عنكِ جدار أخرس

وامتص ذاك الصوت منها

فتهاوت

وبكينا

يوميات الحطيئة :

٤ ـ الوحي

كنت أرى وجهي على عيونهم سؤال
أطوي على عري العظام الجلدَ
إِذ أخفي عليها السر!
أخفي عليها ما لديَّ من جراحِ القهر
أقابلُ الجميعَ بالرداء
ومرةً
في زحمةِ الطريقِ صاح بي:
«يا صاحبي
أراك مثلي تائهاً
تقعي بعيداً عن حياتِك
أرى نزيفَ الألم المزمنِ
قد خدَّد سيلاً جامداً في قسماتك
تعالَ صوبي والتحم بي مرة

تعال واتكئ عليَّ مرة

علّي إذا ما احتجت أستطيع الاتكاء

تعال نجمعْ رغبتينا في البكاء

تعال نرفعْ هذه الغربة رايَه

فكلّما اقتربتَ مني خطوة ينمو العزاء

وكلما اقتربتُ منك يا أخي

تلوح لي خاتمة الحكايه»

عيناه نادتا إلِيّ

عيناه عرَّتا الذي أخفيتُه

وهكذا اقتربتُ منه أبتغي الهدايه

حاذيتُهُ

عانقتُهُ

طعنتُهُ

وعدتُ للبدايه

٥ ـ الهجرة

بلهفة لدى السكارى المتعبين،

يصرخون طالبين النغمة الأخيره

كي يستطيل الليل والهروب في العراكْ

نمسك ذكريات موتانا طويلاً في حماكْ

نجري إِليك،

نرتمي في حضنك المليء بالأشواكْ

فضمّنا إليك

ولْتُوغلِ الأشواكُ في قلوبنا الصغيره

ولْتُخفِ عنا الوجه في المرآه

تطمسْ بها هذي الوجوه المتعبه

وعزلة الطريق، والكلابَ السغبه

غزل دمشقي

يا حلوتي التي أحبها
أحلم أنني أراها وهي في النافذة المقابلةْ
أمرُّ قرب بابها
أرفع صوتي، وأنا أختلقُ الحديثَ،
كي تسمعني
توقظ في قلبي الجراحَ الغافله
وحينما يتعبني التجوالُ بين الأوجه المجامله
أعود للخوف القديم أحتمي به
أستر وجهي بالتحية المخاتلةْ
أسير بين السابلةْ
كجَمل في قافلةْ
وبغتة... أسمع في الظلام صوتكِ الحبيب
في صرخة مروِّعهْ
تمتقع الأضواءُ والوجوهُ وسط الزوبعهْ

أسمع بسملات شيخ، همهماتٍ من نساء

والكل يلهجون: «يا ستّار»

أشق دربي راكضاً

بين الذين صُعقوا... تسمّروا

ورفعوا وجوههم إلى السماء

وحينما يتعبني الفرارْ

أسند رأسي خائفاً إلى الجدارْ

أسمع نبض قلبه يرتجُّ في الأحجارْ

حتى المذيعُ ارتجفت نبرته

فكاد أن ينهارْ

حين ابتدا ليقرأ الأخبار

***

وسط الزحام،

خلف تلك الأوجه المبرقَعَهْ

في قاسيون، في عبوسه،

وفي الحجارةِ الممتَقِعَهْ

وفي وجوه النسوةِ الملتمعهْ

يرعبني التوجُّسُ المخيف

يرعبني الدمُ الذي يقطر فوق جبهةِ الرصيف

وفوقه أقدامهم تمرُّ مسرعهْ

أهربُ صوبَ بيتنا مرتجفاً

وأوصد الباب ورائي كي أنام

وحينما أغفو وفي العينين طيفُكِ الأليفْ

يوقِظُني وقع النزيفْ

***

يا حلوةً تمدّدت على الدروب منهكَهْ

كامرأةٍ منتهكَه

كلُّ بَنِيها حولها يذوون في سكون

يخفي ضمورَهم بريقُ البلدة المحنّكهْ

و لا يرون أمهم ولا يرون جرحَها

بل يسمعون النزف قطرة فقطرة

ومقلتاها ترقبانهم

ولا تقوى على مسحِ جبينْ

وَهيَ ترى دماءَهم خلف الخطى المرتبكهْ

وحدي بحثتُ عنكِ يا سيفاً بلا ذراعْ

وحدي بحثتُ عنكِ في الأزقة المشققهْ

يا مجدَنا الذي غفلنا عنه لحظة فضاعْ

وصار صورةً على الجدران ملصقهْ

أبحث عنكِ علَّني أمسح عن جبينك الحنون

بعضَ طلاء القصةِ الملفقهْ

وحينَ لا أرى سوى تلكَ الرؤوسِ المطرقه

أعودُ للخوفِ القديمِ، أَحتمي بِهِ:

أخافُ أن أطلَّ فوق قاسيون

كي لا أراكِ صفحة من كتبي الممزقه

كي لا أرى الدمَ اليتيمَ في رمال ميسلون

فأحضن الوجوه والجدرانَ

في أغنيَّةِ اللقاءِ والوداع:

«يا أمنا المختنقه

على حبال المشنقه

إلى متى؟

إِلى متى تبقين هكذا مُعَلَّقَه؟!»

٥- الحصار

تخطو خطوتك الأولى

تصطدمُ بحزمة ضوءٍ

تُبهتُ... تسكن أضواء حولك

وتئز رصاصات الإِنذار الأولى

ويجيء الصوت:

سَلِّم نَفسَكْ

يتواطأ ليلٌ ورصاص

تُحكم غربتك عليك الأبواب

يقف الذل.. غريباً للموت

يتلاشى من حولك زيف البسماتِ

تحيات مجاملة الصبحِ

وتنطفىء وجوه الأصحاب

في بقعة ضوء تُحتَضَرُ الدنيا

الموت خُطى تتراكض في العتمةِ

والليل نباحُ كلاب

الضوء سلاحٌ

منبثق من أصقاع الظلمه

وملامحك السمراء ستفضحكَ

اكتمل حصارُ الغابه

الأزهار،

وساحات الأمنِ

ثمار الغابةِ

تغريد طيور الغابةِ

ظلمتها

رهبتها

سحر كثافتها

وتدَلّي الأغصان

ولون الغيم على حافتها

تتحول أنياب

تكتشف البند الأول في قانون الغاب

وبومضة عين

تتعلم نقل الخطو الواجف بين قطيع ذئاب

سَلِّم نفْسَك

النبرة ضاقت

دائرة الضوء تضيق

الصوت الآمر يعتصر الحلمَ

يضيّقُ جدران الذكرى

يمسح أشجار الغابة

تضحي الأرض فلاة... لا تمنح ظلّاً أو ملجأ

وتفيض عليك الظلمةُ

حتى تصبح في سَمّ الإِبرة محصوراً

حين يجيئك صوت سلاح يتهيأ

تتلفت...

كل دروبك تبدأ من موتك

تمتد إلى موتك في فوهات بنادقهم

تُدرِكُ أنك مطلوبٌ ميتاً في كلِّ قوانين الدنيا

تستعرض عيني أمك مترعتين دموعاً

وَجهَ حبيبتكَ الحلوَ

ورعدَةَ والدك الراجف

تبصر صورتك على الصفحات الأولى

من صحف الوطن الغافي

تُصبحُ أوسمةً يلتحف بذكراها كل نيامِ الأُمَّهْ

كلمات تكتب باللون الأحمر

- من لون دمائك -

توحي بالنبأ العاصف

آخر مبتكرات العلم لغسل الذمَّةْ

تُدرك كم وجهاً

كم شهراً

كم شبراً

من تلك الأرض عليك تواطأ

أصبحتَ هنا المطرود بكل سلاحٍ

وبكل فضول الحقد الخائف

عربي أنت

تهاوت من حولك أسماء الناس

تواريخ الجهل

بُداةٌ في أقبية اللذة

في أحدث سيارات العصرِ

ركامٌ ما أفناه الدهر الخائن

إذ مر عليه وأبطأ

ورأيت بمرآة الصوت الآمرِ

هندياً أحمر يُستَفرَدُ في البار

وزنجياً حوصر في الحي الأبيضِ

نسراً مجروحاً يأكله النمل على القمَّةْ

ورأيت الصيادين يعودون بوحش

وصغاراً مدفوعين بسحر الخوف إلى الفرجةْ

يتألق فيك الزمن الهارب

تختطف الومضة

«لو أني قبل الآن صحوت

لو أن دقائق أخرى تمنح لي

لأعوِّض زمناً فيه لهوت»

تستعرض زمن النضج المقسور

ثمار رجولتك الفجَّةْ

أيام قَدِرتَ على الظلم

وأيام عفوت

لو أن الثانية-الخطأ

وقد ألقتك إلى الفخ

اكتُسبت من زمن فيه غفوت

لو...

تتسارع أقدام تركض نحو المخبأ

تطرد سحر الحلم الخادع

حين تحدد مكمن هذي الضجَّةْ

سَلِّم نفسَك

آخر إنذار قَدَّمَهُ الصوت

تعتصر زناد سلاحك...

تُطلق... ما تلحق أن تطلقه

قبل وصول الموت

٦ـ مهرجان دموي للفقراء

يا بني
إذا رأيت حرباً، جبانها يجرؤ
وشجاعها يجبن، وخسيس المحتد
يتحكّم فيها بكريم المحتد، ففُرَّ
منها وانأَ إلى رابية، وترقَّب
الأحداث تَرَ أنَّ في الأمر خيانة.
قس بن ساعدة

حين دقت بابَهُ الحربُ،
وكانت ترتدي أقنعةً من وَطنِهِ
فتح الباب وماشاها،
فجسمُ الوطن المرجوِّ يدمى خارجَ البيت
ووجه الشجر المورق يصفرُّ على عينيه
والقلب المداري ألمَ الغربة يحوي قطعة من كفنِهِ
حمل الأرض على كتفيه زادا
أجَّل الأوجاع من فقر

وحتى ظهره المحنيّ بالظلم استقام
كان قد ضيع في الفقر الحياةَ المرةَ
امتدَّت بموتين
فماشى الحرب لم يُومِ لشيء بالوداع.
كان يدري أن هذي الأرض
مهما وجدت من يملك الأطيان فيها
من يبيع الترب منها
لا تلاقي غيرَهُ في الساح إذ يقوى على الأرض الصراع
«تعيّره في السلم يا ابن زبيبةٍ
وعند اصطدام الخيل يا ابن الأكارم»[1]
أقبلتْ تطلبه الحرب فماشاها
تعرّى الحلم في كفيه أضحى بندقيه
بسمة واحدة تفضح ما يعرف:
إن الجوع في البيت
وفي زنديه آثار القيود
عَبرَ الغربة حتى موته،
كان الشباب المهملون
يوقفونَ اللغوَ والخوفَ
ويمضونَ إلى الموتِ

(١) عنترة.

كما تعبر ليل المطر الدامسِ

ضرباتُ الرعود

لم يلاقوا عمرهم داخل هذا الوطن المحبوك سجناً

فتنادوا ليلاقوا موتهم عند الحدود

ضاقت الأرض التي يلبسها في الفقر ثوباً وعزاء

ودمشق اتسعت حتى احتوت كل البكاء

ما الذي يفعله حين دمشق اتسعت؟

ضيقت من حول عينيه حصاراً

لم يضيقه جنود الغزو والطغيان

هذا وطن يمتد حتى يسع الدنيا

ويضحي حجراً منهدماً وسط دمشق

صارت الدنيا له عائلةً باكيةً تَجمع أحزاناً

وتغدو وجهَ طفلٍ خائف وَسطَ دمشق

ما الذي يفعله حين دمشق اتسعت... وانهدمت واستنجدت؟

إن في الأرض أماناً من سياط الجند والتجار والخوف

وفي الأرض قبور تسع الموتى

صحارى من زحام الناس تُؤوي الخائفين

إن في الأرض أماناً من جنود الغزو

فيها كل ما يستر من عاصفةٍ

لكن ما الذي يحميه من عيني دمشق؟

ما الذي يفعله الآن إذا راودها الغزو

إذا أخجلها السبي

وعبر الخوف شاءت أن تداري الخزي

أن تطلبَ من يسمع منها نهدةَ القهر

وأوجاعَ النداء

ما الذي يشفيه إما انتابه التوق

إلى العطر الذي يصدح فجرا

ياسميناً من دمشق

ما الذي يؤويه إما طاردته النار،

إما حلَّ فيه الوجع الطالع من جرح دمشق

ما الذي يُبعدُ عن أحلامه الآن عيون الشهداء

اللابسين الموت فوق اللحم

من أجل دمشقْ

والذين انتثروا لم يعرفوا الزاد بدنياهم

ولا قَبراً على درب دمشق

ما الذي يخفيه من عيني دمشق؟

حينما تصبح عيناها ضميرين وجرحين من الأعماق

لا يشفيهما الخمر ولا العشق

ولا زحمة تجار دمشق

صاح جرح لا يُداوَى:

أيهذا الوطن اسمعني

فقد ناديت عمري فيك لم أسمع سوى رجع النداء

سوف أختار على أرضك موتاً

لم يكن يخطر يوماً في ضمير الأنبياء

صاح فقر:

البلاد ابتدأت من دمها

والمهرجان اشتعلت فيه دماء الشهداء

يا بلادي

كلَّما مرّت على أرضك نُعمى نَسِيتَنا

نَسِيَت رؤية قهر الفقراء

إنهم قد أوصلوا جثة من مات إلى القبر زغاريد

لكي لا تلتقي عيناك فيهم بالبكاء

فبكت فيهم دمشق

وتعالت في الضحايا كلمات الأغنية:

عادةً، يبتدىء الموت مع الفجر

وفي وجه دمشق ابتدأ الموت مع الزهر

وغنّى في دماء الياسمين العذب عصفور الصباح

عادةً، يندفع الموت إلى الأحلام والناس

وفي حرب دمشق اندفع الناس إلى الموت

وفي وجه دمشق اندفعت عين إلى الدمع

وفي صبح دمشق اندفع النور إلى الشمس

وفي الموت تعالت خفقات الأمنيه

إن هذي أمة تحترف الضوء

وهذا عاشق يحترف النار

وهذي الغربة العمياء أضحت وطناً مشتبكاً في دمه

يزداد قربى حين تزداد الجراح

تنتهي الحرب ولا يرجع للبيت

مضى في المطر الراحل

في الريح التي تنقله مثل الضباب

تنتهي الحرب ولا يرجع للبيت

ولكن يرجع التجار للسوق

كما يرجع في الصيف الذباب

مرت الحرب فأغوته،

وكانت ترتدي سحنة هذا الوطن الجارح

أغوته وألقته إلى النار التي تبدأ بين الجوع واليتم

وأنياب الذئاب

أيهذا الوطن اسمعنا

فلم يبقَ لنا إلا النداء

نحن أبصرناك في أول ضوء العمر

ودَّعناك في آخر ضوء العمر

ما اعتدنا سوى وجهك في العرس وفي اليتم
ولم نلقَ سوى فرصتنا أن نتساوى فيك بالناس
فنغدو شهداء
نحن عدنا من غمار الحرب
خَلَّفنا شباباً تأكل الطير بقايا لحمهم في القفر
عدنا لزوايا الفقر والنسيان
نحيا في أراضيك يتامى غرباء
إننا في وسط الحرب اكتشفنا لعبة الغدر
ولم نرجع
لكي لا تصل المذبح وحدك
إننا نزدحم الآن ونفديك
لكي تسمع صوت اليتم
إن ناداك في الفقر يتامانا
فهذي فرصة العمر لنا أنا نؤآخيك
على مذبح جلاديكَ.
مُرنا ما تشاء
فَلتكُن ما كانت الحرب:
طريقاً دموياً للخيانات
ستاراً دموياً لدموع الفقراء
فلتكن أغنية دامية عند وداع القدس

أو باباً يرد الغد عنا

فلتكن قبراً لنا أو لفلسطين

ولكن لن تكون الحرب أن تمضيَ للمذبح وحدَك

إنهم ساقوك للحرب

أرادوا أن يخلّونا على أرصفة المحنةِ

نرثيكَ إذا ما مُتَّ

أو نبكيك إن تهتَ

ولا نقوى إذا ما انفجر القهر بعينيك

بأن نمسح منه أدمعكَ

أفردوك اليوم في السوق ولكن

إنَّ قهرَ الفقر يأتي

وحده يركض بين الموت والموت

وبين الطلقة العمياء والجرح الذي تفتحه

ثم يغني في الدماء

وحده يبتسم للموت

فموت العاشق الولهان في عشق حبيب القلب

عربون الوفاء

كل جيل عبَر المحنة بين الموت والموت

لكي يثبت للأرض الولاء

تلك كانت محنةَ العمر التي لا تنتهي للفقراء

يذبلون العمر في الجوع وفي النسيان لكن...

بغتة في محنة الحرب يجيئون كنحل

لسعةً ثم يموتون

ويبقى في خلايا العسل اليعسوبُ

والطُحلُب في الحقل

وفي المقهى يَظَلُّ المخبرون

٤ـ سيأتيكم زمان

ها هو الموت يأتي... خطاه على الأرصفة
وجهه سيفاجئ في العَطَفاتِ
وقد يشرئبّ من الأرغفة
ها هو الموت يأتي...
تنفسه عند بابي،
وفوق وجوه النيامْ
ها هو الموتُ يأتي... انهضوا أيها الميتونْ
جاء موتٌ جديد
نابع بين حبل الوريد وبين الجبينْ
هادئٌ، مختفٍ بين دفء الكرى والنعاس
قادم مطراً فوق هذي البيوتْ
ها هو الموت يأتي، اطمئنوا، اكشفوا موتكم
فالذي لا يموت قتالاً،
صراخاً يموتُ، وغدراً يموتُ، وغيظاً يموت

يؤكل الموت، يشربُ، يلبسُ، تغسل فيه الوجوه
يختفي في الهواء إذا ما قبعتم وراء البروج
أيها الميتون الذين دَفَنتم رؤوسكم في رمال الحياة
أيها الميتون... سلاماً مميتاً

***

كل نَبع يُحاصَرُ،
لم يبقَ للشرب إلا الدماء
من ضفاف المحيط إلى كربلاء
وحدنا فوق رَملِ البلاء هوينا،
انتفخنا على الرمل حتى انفجرنا عفونه
والصبايا تلفّعنَ بالسبيِ،
قيلَ: التجأن إلى السبيِ
قيلَ: سُبين ولم تختلف حولهم الظروفْ
قيلَ: جعنَ، فلم تتحرك لجوع النساء السيوف
(حينما يشتهي الرجل امرأةً، يشهر السيفَ حتى ينال الوَطَر)
قلن: ماذا سيفقدنا السبيُ
- ماذا تبقّى لجند العدو؟
- وفيمَ نخاف اغتصاب العَجَم؟
- أغريق يخاف البَلَل؟
- ما لجرح بميت أَلم

- مثّلوا كيف شئتم بلحم الغَنَمْ
- تأكل الحرة الثدي إن جاع أبناؤها
- وإذا اغتُصبت في قبيلتها
ما الذي ستفيد الحكمْ
هاهنا امرأةٌ أعلنت عهرها
فاستردّوا تهامسكم بالتُهَم
علقت سعرها فوق قبر أخيها
وردَّت على الميتين الرداء
تركت للجناة الحياءْ
مدَّدت من سيوف القبائل تختاً
تمارس فيه البغاء
(كلّما أصدر لي أمراً نفّذتهُ بحذافيره، إلى أن
أمرني: استرح. قلت: لا أستطيع).
إنني أول الميتين جهاراً
وآخر هذي السلاله
أتعرق موتاً، وأُولد أُنثاي موتاً
وأبصر موتي ظلاماً، وأبصره في البريقْ
جاء طوفان نوح، وفُلك القبائل لم تكتملْ
والجبال تغيضْ
ما الذي سوف تفعله وسط طوفان نوح البساله

مَن سيدفن مَن في الزحام البغيض؟
كلّنا وسط هذي الضلاله
وحده الموت يعرف وسط الركام الطريق
(نهرني بصوته الجهوري: «حين تسير أيها الحيوان
اِرفعْ رأسك». حاولت فلم أستطع).
الملايين إذ تتقن القفر والبسمله
والتي زحفت سيل عزم تهلل
أوصلها الدرب للجلجله
وطيور تحوّم فوق الرؤوسْ
تأكل الخبزَ والأعين المُقَفَله
واحداً... واحداً سقطوا:
ميّتٌ ببكاء
ميّتٌ بشهيقٍ، وآخر مات بحلو الغناء
ميّتٌ عند باب، وآخر وسط الطريق، وآخر فوق الرصيف
ميّتٌ... ميّت... ميّت... لا قبور ولا ذكريات
ميّتٌ في صفوف الجهاد وفي الردة الناكره
ميّتٌ في حراب الأعادي، وفي أسرة غادره
ميت يتلقّى الخناجر دون نزيف
ميّتٌ...
سقط القلمُ الناقلُ السرَّ

جفّ اللسانُ على جملة ساحره

وهوى رأس آخر حيٍّ بهم

يَبِست في محياه ضحكته الساخره.

بردى

متمهلاً يمشي... وخوف الناس في عينيه كالمبضعْ
وطحالبٌ في ضَفّتيه تمصُّ صرخته فلا يُسمعْ
متوجعاً ينسالُ،
بردته تكنِّس أرض شارعنا من الضوضاء
يمتصّ أحزان الصغار، ويشرب الأوجاعَ لا يَشبَع
والصخر يهجر قاسيون إليه مندفعاً
يُشقّق راحتيه على الضفاف ولا يَمسُّ الماء
يحمرّ وجه النهر في حَنَقٍ يسيرُ بدمعه مُترَع
فإلى متى تتيمّم الأشجار عند الضفة الخضراء؟
والرمل يشرب منه لا يُروى
وفي بَطَر أتت تتوضأ الصحراء

***

يمضي... يَجرُّ عنانَه قلق
ويلطمه على خديه ما ينمو من الأشواك

فيكمِّم الأمواج مذعوراً

يهدهد هامساً لينوِّم الأسماك

وعلى رمال القاع في حذر تحفّى

سال تحت المرجة الخرساء

ويرد ياقته على عينيه، يخفي الوجَه

نرقبه ولا تتحرّك الأيدي تُودِّعه

وفي توديعه تتلكّأ الأضواء

ويمسُّ أرض الغوطة الخجلى فيرتعشان

يتعانقان بلهفةٍ

ويراقبان ظلال أشجار الطريق

ليسرقا بعض الهوى أو يطفآ الأحزان

ويجوس فيها مولعاً ويصبُّ فيها كل طاقته فلا تَقنَع

الخوف أضحى لهفة... حطباً لنار التوق

حتى النارُ أضحت زادها،

التهمت لهيبَ النار غوطتنا

فلم نبصر لحبهما لهيباً...

لم نلاق دخان

وعلى تعرج أرضها استلقى أسىً

رمحاً بغير سنان

سيروح منها خاوياً ليصير مُستَنقَع

يتباطأ المجرى...

يعرّج خطوه صوب الظلال

وينثني إعياء

الرمل بعد حدودها يَلمَع

وبرائن الصحراء لا تغفو

وفي شبق للقياهُ

بدت تتلمّظ الرمضاء

***

كانت له ذكرى وذاكرة

وكان لديه ما يكفي من الإيمان

في الشعر غرَّدَ مُدّنَفاً

فجرى وصفّق باسماً

لاقى الضيوف وأنزل الركبانْ

بدأ الحياة بقفزة نحو الحياةِ

ومرَّ بين الصخر كي يَرضَع

ومضى ليلهوَ في السهوبِ

كما انثنى ليداعب الوديان

التربة الحمراء أولدها جناناً

أولد الصحراء حُوراً

عبّأ الأفياءَ بالولدان

لكنها ذكرى وذاكرة بلا أسماء

فلقد تراكم غيظه...

لما تداوله جنون بنيه والأعداء

قفز الضفاف محاذراً بقميصه الممسوك بالأسنانْ

ومضى إلى سوق المدينة وحده نزقاً

يكسِّر ما يصادفه،

ويحرق ما يصادفه بلا حسبان

يجري وصفّارات بوليس المدينة خلفه

وسلالم الإطفاء

ليعاد مخفوراً إلى المجرى

***

متمهلاً يمضي... وقد أضحى بلا طاقه

متمهلاً والدمع محقون بعينيه

طعنوه مرات فلم يُصرع

قسموه سبعة أنهر

في كل نهر عذّبوه،

وجرّحوا بالحقد خديه

قلعوا أظافره، وما تركوا على كفٍّ له إصبَع

فصدوا دماه وأبعدوها

غيّروا عينيه،

لموا منه سحنته وأوراقَه

في كل مجرىً جفّفوه، وجرّبوا بالسرّ إحراقَه

حقنوه بالأقذار، دسّوا فيه ذاكرة بلا ذكرى

دسّوا عليه هوية أخرى

قنّوه في باحاتهم

وتسامروا ليلاً على أنّاته

غسلوا به الأقدام والمخدع

وتداولوه فقطّعوه وأرجعوا الأشلاء للمجرى

فبكى قليلاً

لو رموه إلى الظلام مكبّلاً لم يرتجف ذعراً

لو سلّموه لبائس يَزرَع

لو أنّهم تركوه في الصحراء أخصبها

وأنبتها نخيلاً... أوجهاً سمرا

لو أهملوه، لشقَّ درباً حيثما يبغي

لأمرع في الصحارى جنة خضرا

لو شغّلوه بقسوةً

لم يبكهم

لم يرتجف بالقهر كالأسرى

لكنه حمل الدموع، وسار في صمت

وفاجأهم بأن الماء لم يُصرَعْ

وجرى إلى الصحراء يخبرها

بأن النهر قد يدمى وقد يُقطَع

قد يستحيل بحيرةً

قد يستحيل سحابةً

قد يلتوي قهرا

لكن هذا النهر، إذ عشقته أرض الشام

أو حضنته غوطتها

فلن يَخضَع

قد ينحني إن مرّت الأنوار تصفعه

لكنه إذ ينحني

حتى يمسَّ الأرض

لا يركع

لو في الأصابع ذاكرة

هَا أنتِ وهجٌ يخطف الأبصارْ
من أين جئتِ؟
وأنت منذ هنيهة لم تبرقي قربي
ها أنتِ قدامي وفي قلبي
ها أنتِ عباءتِ السرير
وها هي الأنواء والإعصارْ
وأمام أيتامي اتسعتِ مدينةً
وهدمتِ لي الأسوارْ
وفتحت صدرك كف حانية
تكفكف يتمي المهذارْ
بجلال هذا العري
تنتشر البدايات التي تدعو
بألف لسانْ
فتضيعني الضوضاءُ

يخنقني التردُدُ
في انتظاري واقفاً أتعبْ
أي الدروب أجوسُ
حين تمد لي أبعادها الصحراء؟
من أين أبدأُ؟
أين أرسي لمستي الأولى
وأسري في تلال النورِ
أبدأ كشفي الظمآنْ
ها أنتِ قدامي
وبين يديّ ترتعشين
بين يديّ ينتظر التوثب والتحفز
تقطر الأشواق
في كفّيَّ يرتعش التلمّظ
لا يصدق ما يرى المخلبْ
تبقين حاضرةً وغائبةً
وأنت النوم في الأجفان أتعبها الأرقْ
من ذا يكوّم كل هذا الضوء في صدري
وفي دربي؟
ماذا سأفعل علّني أُبقي بغرفتيَ الألقْ؟
منذ التقينا

واغترفنا

وافترقنا دونما أعذارْ

وأنا أجاهد كي أعبّئ راحتي بالنارْ

من أين لي استظهار هذا الوجهِ

وهو يموج بالرعشهْ

أو ذلك الجسد الذي يرتجُّ

يطفح بالتموّجِ

ينثني ويُدارْ

من أين آتي كي أُلاقي ما عرفت لديك من دهشهْ

أنا مولع بالبغتة الأولى

أصلي كي تعود إليَّ

أو يتجدد الإسراءْ

ولعلني أقوى على خلق المدائن مثلما خُلقتْ

أعيد لها الكنوز

وأُرجع الأضواءْ

***

عبثاً جهودي

لم نزل إثنينِ

ها أنت أيقظت الجحيم

حملتِهِ

نادي إذا ألقمتِه جوعي:

«مزيداً منك

أحرق ما لديك

من الضنى الشبقيّ

والحرمان والرهبةْ»

كيف السبيل لكي نصير إذا التقينا

مثل لمع السيف من سيفِ

يضحي جنوني فيك ملتحماً

شعاعاً خارجاً من شمسه

أو ممعناً في شمسه

ونهلُّ أمطاراً على حمارة الصيفِ

قومي إذا اندلع الصباح فأطفئيه

وخبئيني في انطفائي

خبئيني في الخدرْ

يكفي اندلاعك واندلاعي

من يجمّع ومضتين؟

ومن يوحّد في تطايره الشررْ؟

سنعيد نغمتنا

أنا الكف التي عزفت

وأنت الرجفة الأولى بأعصاب الوترْ

نضحي غديراً خارجاً من موجة

ليس التموّجَ

ليس صخر الشطِّ

ليس الريح

ليس الماء

أو وقع المطرْ

فأنا وأنتِ الريحُ والأنواءْ

سأحيك ليلكِ لي نهاراً

والنهار يغيم،

أمحو حدَّهُ

يضحي أمام العين كالطيفِ

وأذيب ذاكرتي التي تستقبل الأشياءْ

في حالةٍ كنا لها بدءاً

وليس لها ختامْ

لو في الأصابع، بعدُ، ذاكرةٌ

تعي جولاتها

وتلامس الأضواءْ

لو كان وهجك باقياً

دنيا بلا أفياءْ

لو أنني الضوء الذي غطّاكِ

حين تضيئك الرغبةْ
وأمرُّ فوقك مبطئاً
مثل الضباب
على مساكب صدرك الرحبةْ
وأزخّ فوقك
زاهداً بكهوفك الرطبةْ
أبقى ارتعاشاً لامساً
فوق انزلاقة بطنك العريانْ
متمرغاً في النهدِ
في الساقينِ
في الرقبةْ
في فسحة البطن الرخيم
وفي تناغم زلفة الركبةْ
لو أن ربَّكِ لم يعلّم هذه الأسماء
لجعلت رعشتنا اصطفاقاً دائماً
للبست جلدك لي رداء
حين أضحى في الدجى المحموم دون رداء
أضحي الدم الساري إلى الشفتين
أمخر ناهداً فأعي تكوّره
يضحي ارتجاج النهد خفقة قلبي المقهورِ

رعشة جفني المبهورْ

وأنا أواجه كل ثانية ظلاماً خافقاً بالنورْ

من ذا يعيد لي الدقائق

وهي تركض عبرنا خوف الألقْ

حين انصببتْ

وددتُ لو أني أتيتُ إليك عبركِ

دونما جهد

وأظلُ أرشح بين دورة ناهديكِ مع العرقْ

كالضوء يعبر في الهواء فلا يصادمه

ولا يلقي له ظلاً

وأظل محتوياً توهج ما تكوّر

أو تشهّيَ ما انزلقْ

وأجيء من صدري إليكِ

أغوص من قلبي إلى الجسد الرخيِّ

أمرُّ مثل النوم في الأجفان

وأجمّد الرؤيا على عينيكِ عند توقّعي

وأغوص عبر غياب عينيكِ

اللتين، وأنت غائبة معي،

رأتا الهواءَ

وغاصتا في الماءْ

تقنا لو أن لقاءنا يضحي بلا جلدين

لو جسم يذوب بجسم حاضنه

نعيش بحالة

غير الترقّبِ

غير معنى الالتحامْ

نضحي كعاصفة

كلانا الريحُ

في اللقيا تذوبُ الريحُ في الريحِ

تستقبلين جموحيَ الظمآنْ

نسقي ونشرب

نمزج العرقين والأنفاسَ

تشتبك المسامْ

لو أننا ارتحنا بلا صمتٍ

ولا صوتٍ

وأمسكنا بكفّينا الكلامْ

لو أنني أقوى على استنفار هذا التوقِ

أُضرمه فلا يُطفأ

لو أنني أرغي إذا استقبلت وهجكِ

ثم لا أهدأ

لو أنني، إذ أبصر الأشياءَ

ثم أمدّ كفِّي،

أمسك الشيء الذي أبصرتُه

أو أمسك الصوت الذي أُسمِعْتُهُ

لو أنني أمسكتُ نهداً غير هذا اللحم

لو أمسكت دورته

إضاءته

بريق الحلمة الخفَّاق تحت الثوب

وهج الساق تحت الثوب

رجّة إليةٍ في الثوب

لو أمسكت هذا الضوء في الصدرِ

لو ذقتُ،

أو أمسكتُ

ما أبصرتُ في عينيكِ

حين دعوتِني

من قبل أن تعري

لو كان عندي ما يلمُّ العين حين تغيمُ

وهن العين حين تلعثمت شبقاً

وحين تلعثم الشبعُ الرخيّ بها ونامْ

لو كنتِ مثل البرد تشربكِ العظامْ

لو كنتِ مثل الدفء

لو شيءٌ يُشيعُكِ في المسامْ

ماذا لوَ أني كنت كالشجرهْ

وجذوريَ الظمأى تغطي كل ما أبصرتُ

في ساحاتك البطرهْ

تتشرب الرجفات من عينيك

تمتصُّ الليونة والنعومة

والتراخي والبياضْ

يضحي بريق اللوعة الخرساء في عينيكِ

بعد تفتُّحي ثمرهْ

***

لكنني ما زلت أجهد

لم نزل إثنين

هذا البريق المزمن القاسي

يظل لديك وهّاجاً فلا يصدأ

تمضين غائبة

وأبقى في زحام الجوع

في أنوائه الحيرى

وينزح خفلك المرفأ

تمضين حاملة جموحكِ

والغنى الأبديَّ والنعمَهْ

أخشى عليك العبء

أخشى أن تُضيعي ما حملت

فنفقد الأضواءْ

وكأنني أسلمت ما عندي

لطفل راح يلهو وحده في الماءْ

وأنا أجاهد كي أضمَّ بقبضتيَّ الماءْ

تمضين مترعةً

وأبقى جائعاً

تبقى الذئاب تلوب في الظلماءْ

وأنا انهددتُ

ولم يزل بركانك الفوار فواراً

وما زال التكور والتوهج فيك

حتى حين تستلقين نائمة

وحتى حين تبتعدين

لا يهدأ

وأنا الذي ضيَّعت ما أبصرتُ

أو ضيَّعت ما أمسكتُ

أو ضيَّعت ذاكرتي

أعود الآن كيف أبدأ

ها أنت وهجٌ

أنت عبأتِ السريرَ

وأنتِ ترتعشينَ

فاض بكِ السريرُ

وها أنا أبدأ

لكننا سنظلُّ،

رغم جموحنا في العتم،

إثنينِ

أذوي، إذا مرّت بنا الساعاتُ،

ترتحلينَ

يرتحل التكوّر فيكِ

نبقى مثلما كنا ببدء الليل

إثنين

نقوش تدمرية

رجلٌ أنهكه التطوافُ وراء الماءْ
وامرأة تركض صوب الظل المنسيّ
سقطا في بئرٍ
فانتشلا البئر من الصحراءْ
وقفا بجرار الماء لجيش عربيّ
صارا زرداً في درعِ نبوخَذْ نصَّرْ
صارا نبلاً في جعبته،
أصابا فأصاب الأعداءْ
رجلٌ وامراةٌ وقفا في الواحةِ
مرتجفين أمام الحبِّ
فامتصته،
وصارت بَرْداً في الرمل المشويّ
ألقوه بجبٍّ ومضوا...
شربتْ ماء الجبّ

نثروه... في الرمل سراباً

صارت نبعاً

صارت ماء النبعْ

نثروه تراباً... صارت شجره

زرعوه

صفصافاً

صارت نسغاً في الغصن الشارق بالدمع

واختزنت من تعب طلعاً

صارت ثمره

***

أخفوه عن الأعين وهماً

صاغته ربَّاً يتجدَّدْ

يتجلى للبدويِّ

وسِرَّاً يُعبَدْ

أجروه مياهاً

فامتلأت منهُ

حملته... إبناً

يكبر في البطن ولا يُولدْ

***

والتحما:

كان أساساً من صخرٍ

نهضت فوق الصخر عمارَهْ

واخترقت صمت الصحراء بضوضاء

أصبح للبلقع ذاكرةٌ

وتحرك رمحٌ خطَّ على الرمل حضارَهْ

والمرأة فيه عبارَهْ

لبسَ الرملُ الواحةَ سبعة أيامٍ

سبع ليالٍ

واقتحمتْ أنثى واحاتِ الزمن المجهَدْ

تشهر ضوءاً يجرح نوم التجارْ

... ورأوا صوتاً يمشي في الصحراءْ

ورأوا غضباً يمشي فوق الماءْ

فهووا سُجَّدْ

واستلُّوا في السجدة من بين الأضلاع الأشياءْ

***

مرَّت في الزهر ربيعاً

عبروا ريحاً،

فاقتلعوا الأزهار

مرَّت عزماً

يجعل صمت الربع الخالي يتنهَّدْ

عبروا أقداماً يتلوَّى الرمل الموجعُ

تحت خطاها العمياءْ

نثروها كلمات في كتب الأخبار

فهوتْ من ذاكرة الصحراءْ

صارت آثار خريف في الشجر الأجردْ

***

وارتعشا:

جسداً دون رداءْ

وارتميا شوقاً ينعس من إعياءْ

كان النهر يلوِّح للبحر

فضمت تدمر حبَّهما في الصحراءْ

وذوى الحبُّ،

هوى فوق الرمل المسبيّ

أكل الطير العابر من لحم الجسد المحنيّ

وامتصت منه الصحراء دماءْ

لم يبقَ بتدمر إلا هيكله العظميّ

في صمت الليل تنفَّس موتٌ

فارتجف القفص الصدريّ

وهوت حجراً تحمل جبهة وهب اللاتْ

ثارتْ عاصفةٌ

صاح عمود مكسورٌ

«يا وهب اللاتْ»

وتململ نخلٌ عارٍ

همس السعف الأجردْ:

يا عبد اللاتْ

سيفك مدفونٌ في غار حراءْ

اذهب للغار تشاهدْ رجلاً يتعبَّدْ

قف بالباب، ونادِ: محمَّدْ

ليجيبك: يا عبد الله

ينفض عن عينيه كسل النجوى

وتسيران بسيفين،

فينتفض الفقراء

ويعيدون النبع إلى الصحراءْ»

صوت يبلله الحزن

إلى علي الجندي

كان الدبُّ حزيناً
يرخي كتفيه
الحزن يهدّله فوق المقعد
والعينان مفتحتان
كنت بصحراء
أتقلب ضيقاً
أنهض بحثاً عن نفسٍ
كالحيتان
كانت عيناه تمدان إليّ كؤوس
وكانت كفّي تتردّد
ينكسب الحزن عليّ
يبلّل صوتي
كنت أهيِّئ نفسي أن أرقص

لكن حين ضحكتُ بجلجلةٍ

رفع الصاحبُ عينيه إليَّ

رأيت توقُّعه أن أبكي

مدَّ الصاحبُ أطرافَ العالم وسط شرودي

مدَّ الخمر أصابعه

ومدَّ الدبُّ إلى عينيَّ دموعاً

وتمدَّد ظلمٌ أعرفه

حتى أغلق كل الأبوابِ

امتصَّ هواء الدنيا

ما أضيق هذي الأرض!

وكم قلَّ هواء العالمْ!

من لي بهواء أتنفَّسه؟

من لي برياح ترفع عني الماءَ

تجدِّد لي بعض هوائي؟

من يفتح هذا البابْ

أو يفتح ما يتحدثُ عنه الأصحابْ

فالمدُّ يمدُّ أصابعه في استحياء

يتقدَّم أمتاراً

ثم يجيء الجزرُ

فيجرف رمل القاعِ

يعرِّي صخر القاعِ

ويبعد حتى الأفق الماء

تبقى الأرض صحارى ظامئة

تتلهف مدَّاً أو مطراً

تستسقي الغيبَ

شقوق الأرض جروح تتلمَّظ

لا المطر يجيء

ولا سيل يستر عري الصحراءْ

يتحرَّك مدٌّ آخر في استحياءْ

نجهش خوف الجَزْر الآتي

نتشبَّث، يهرب منا الماءْ

- قل لي كيف أروِّي ظمأ مساميّ

فالخمرةُ ليست ماءْ

* ....

- الخمرةُ ظمأ يتجدَّد

زيت نسكبه في النارْ

* ....

- أتظنُّ سندمن هذا السم؟

(يقهقه)

أتظنّ لو أنّا نلقى من يتحرَّك

نقبلُ هذا الذلْ؟

أكنا نتردَّى لو أن الألم أَقَلْ؟

ولو أن الوقت حوالينا

لم يتمدَّد مثل الظلْ؟

لو أن.........

ولم ألقَ كلاماً

سرق الدبُّ الكلماتِ عن الشفتين بعينيه

وكان حزيناً

كتلة صمت

عيناه مفتحتان

وكتفاه مهدَّلتان

تهدلتُ قليلا

أين سأمضي بعد خواء الكأسِ؟

العالم أبواب مغلقة

ووجوه الأصحاب دفاتر أستظهرها

أين سأمضي؟ والليل طويلٌ

يبدأ من عتم القلبِ

إلى غبق الأفقِ

الفرحُ عصيٌّ

والدمع عصيّ

لو ألقى النومَ

فأطبق كفَّيَّ عليه

وأطبق خلفي الباب

وأطبق جفنيَّ

ويطبق حولي الليل

ويطبق فكَّيه القهرُ

أطابق بين القهر وبين الدمعِ

فيتَّسعان ويتَّسعان

وما في وسعي غير الإعياءْ

الليل يقطِّر أحزاناً

يمتلئ الليل عيوناً

فتحاصرني أعين حسرى

ويحاصرني اللحم المتمزّق

(يوم انفجرت قنبلة في المهجع

لم أعرف هل عفَّرتِ اللحم

أم أن الأرض يضرِّجها اللحم المتمزّق)

سمَّينا اللحمَ الشهداء

وتحاصرني أعين أهل

دفنوا كتلاً غامضة وسط قبور الأبناء

الصمت ثقيل مثل صدور النسوة

ضاع بنوهم بضوضاء الحربِ
وما زلن على أمل الأنباء
يتدفَّق سيل عذاب الوطن الضيِّق مقسوراً
يصطدم الوطن بآلام بنيه
يغيب الخصمُ
وصوت صديقي يتهدَّج
أعصابي تتراخى مستسلمةً
- إن الليل كئيبٌ... (أتعبْ)
- إن غناء الحزن لذيذ... (أتعبْ)
- إن الأموات يجيئون إلينا أحياناً... (أتعبْ)
والشهداء صراخ ينهض من صمت النفسِ
الشهداء طريق الحلم
- أتذكر؟
كان المرحوم وسيماً
عشقته امرأة مترفةٌ
كانت تجمع في الصالون الفخم
نماذجَ من أحلى ما أعطى الوطنُ:
ثريَّاتٍ،
كتباً،
وكؤوساً

وقناني خمر مستوردةٍ

ورؤوس وحوش في الغرب محنَّطة

وشباباً

كانت موضة هذا العام لديها الطيارين

أتذكر؟

كانت عيناه مدوَّرتين

أتاني يوماً في خجلٍ

يطلب مفتاح الشقَّة

لم أمنعه: صديقي.

حين رجعتُ مساء

كانت فوضى البيت مفاجئة

يبدو أن الاستنفار دعاه

سبحان الله

كم كان يحب الدنيا!

لكني لا أفهم كيف يوائم

بين الشهوة للدنيا

وتطوعه في غارة منتحرينَ

تصور

كيف تملَّكه في ذاك الوقت غباءْ

ما أغبى الشهداءْ!

كان الحزن طويل القامةِ

ظل الحزن يخيِّم في الحجرة

والدبُّ وحيدٌ

كتلة صمتٍ

راح صديقي يسترسل في الأحزان

ويلعن هذا الزمن «العكروت».

لأن الوطن يُضيِّقُ

حتى يدعوك لقلع جذورك

ظلَّ صديقي يتحدَّث حتى تعتعه السُّكْرُ

فأفردت جناحيَّ المكسورين

تراخت أطرافي

فتهدَّلتُ على المقعد

عيناي مفتَّحتان

وكتفاي مهدَّلتان.

تأبين صباحي

قليلاً من الصمت يا أصدقاء

فهذي جنازة أمي

هو الفجرُ

حشد من الأمهات اللواتي

يبيّضهنّ البكاء

يجئن، كما يهجم الدمع وسط المواويل

ثم يجئن مع الفجر،

لا يُقبل الضوء

ثم يجئن مع الضحك

لا يسطع الفرح المرتجى في اللقاءْ

هو الدمع حشد من الأمهاتِ

اللواتي يكابرهن العزاءْ

توجَّهن نحو فواجع ترسم أعمارنا

مبطئاتٍ

مجيءَ السنونو الذي ضلَّ عن سربه

ثم داهمه البرد

أدرك أن جناحيه

يتَّجهان إلى زمهرير الشتاء

هو الفجر

حشد من الأمهات النوادبِ

للصمت في حزنهنّ

نشيج العواصف في غابة

يتجمع حشد بقافلة تتقن الدمع

والأم بيت من الكلمات الكسيرة

والضحكات الحزينة

والعبرات السعيدة

أشهق

لم أتهيأ لهذا الصباح المفاجئ بالأمهاتِ

انتهيتُ من القصف والعربدات

ورحتُ أجفِّف عن جثّتي ندمي

كنت أنفقتُ في الليل

تحويشة العمر من ضحكاتي

وهاجمني الفقر والدائنون:

الهمومُ التي نبعت من بلادي

التي قدمت لي سهادي

الهمومُ وخيباتها المستعادة

ثم حساب الغد المكفهر

يطالبني الدائنون السداد هموداً

وتشرق في القلب ذكرى

أخلّصها من ثياب الحداد

أتاني الصباح بطيئاً يعزّي

وجئت إلى وعده حاملاً طرقاً للبكاء

هو الفجرُ

يأخذ شكل الجنازة

حشد من الزغردات يصير عويلاً

وزنبقة من مراح الطفولة

تصلح للقبر

والفجر عصفورة فرحت بالندى

وانتشت بهجة بالشذا

حركت جانحيها الصغيرين نحو السماء

ففاجأها الدبق بين الغصون

وصاحت، فأدركها باشق

يبطئ الفجر

كنت أملتُ بأني سأحمله في جيوبي

ويبطئ حشد الحنان الذي أخجلته ذنوبي
يحيط بقلبي ضباب
كأن الصباح يشيِّع أضواءه
ويهرِّبها
وأنا في السكينة وحدي
أهدهد ميتاً بآهاته
وأهدهد صبحاً بأشلائه
وأبدِّد عمراً بأجراسه
ثم أغلق عينيَّ
تنفجر المعولات بقلبي
وأرهب أن أتساءل
من سيشيِّع هذا الصباح؟
لماذا يعود إليَّ أسى الأمهات
توابيت تأخذ شكل الجنازة؟
أضمّد ضعفي
أخاف التطلُّع نحو الظهيرة:
هل سوف تأتي الرصاصة في الشمس
أم تقبل الطعنات مع النسمة الناعمه
وأهجس:
كيف الطعام ليوم جديد

وأين سلامة يوم جديد

وأي الجنود يهدِّد أمني

وأي المساكين يطلب رأسي

وأي الفواجع تحملها النشرة القادمه؟

أمدُّ يدي من ظلام المصابيح

في حلك الصبح

أبحث عن رقصات الشباب

كما أتحسس وكر عقارب

حتى أصادف أشباح عربدة دون صوت

وأهتف بالصاخبين

وأرجو دقيقة شجو:

«قليلاً من الصمت يا أصدقاء

فهذي جنازة أمي»

وأصرخ...

لا يصعد الصوت

أصرخ

لكن قلبي يُحاصَر

بالتهم المستبدّة

بالصخب القامعِ

الموت يراقبني شامتاً

أتشبَّث بالنهر، ينهار

أمسك بالأمهات الفقيدات يغرقن

وأدرك أن الجنازة ليست لأمي

وأجهش

تلك الجنازة تحمل جسمي

وداع دون رحيل

يغيبون عنك

لكنني في ظلام شقائك أبقى

يقول المحاذر منهم كلاماً قليلا

يقول المغادر منهم وداعاً طويلا

يموتون أو يرحلون

يقول المسافر:

حيث الأمان اشتياق

وحيث السموم دواء

نلاقي عن الانتحار البطيء بديلا

وإن لديَّ الكلام القليلا

وإن لديَّ الوداع الطويلا

لديَّ المخاوف والتوق والأمن والارتياح

ولكنني أصبر الآن صبراً جميلا

سأبقى

وتبقى

وكلٌّ على ندّه صار عبئاً ثقيلا

يغيبون عنك

يلقون أمتعة سرقوها

ويلقون ذرّية أنجبوها

ويمضون عنك خفافاً

وأرزح وحدي

لأني أحمل حملاً ثقيلا

وأحمل جسماً هزيلا

يخافون... يمضون

من يتحمل هذا الجنون؟

ابتسامتك الموت

غضبتك الموت

سيفك في السرعة الصوت

لكنني إذ أخافُ...

يقيّدني للبقاء عنادي

يفرّون عنكِ

كما تتجنّب أرضَ الوباء الرواحلُ

ماذا ستفعل بي؟

ولماذا أظل معك؟

ولم يبقَ ما سوف أخسر؟

ما عاد لي أي عمر أجازف من أجله بالفرار

ولم تبقَ أرض أجازف من أجلها بالبذار

ولم يبقَ صوت لأملأ هذا الظلام عويلا

ولكنني سوف أبقى

لعلّ الذي بيننا السحر والحرب

إنّا بدأنا الطريق عدوّين

وأنت تراخيت في حلم

أن تراني قتيلا

أو تراني بعد العناد

أطاطئ كي أتبعكْ

وأنا حامل من طموح المجانين رؤيا

بأني سأشهد

لو حلماً مصرعكْ

القصبة

بين نعاس الحيِّ

وصمت عجائزِهِ

وفضول الغرباءْ

كان الأطفال يشبّون

بحكم العادةْ

في الفقرِ مكانٌ كافٍ للفقراءْ

النسوة يبقين حبالى

فيلدنَ

ويبقين حبالى

والأطفال يشبّون شياطينَ

ويُضحون كسالى

ينتشرونَ

يصيرون الوطنَ الجائعَ

ويصيرون له ثمناً

ممهوراً بدماء

فالفقراء يموتون دفاعاً عن وطنينِ

الفقر وأرض السادهْ

والفقراء يسيرون جموعاً تائهةً

خلف الفقرِ

وكذبِ القادهْ

***

في الغيتو العربيّ

كانت أوجههم مغلقةً

والأصوات القاسية

تشبُّ سكاكينَ

على المدن المنحلَّه

في الغيتو العربيّ

كان دمٌ يتصبَّبُ

من أبوابٍ دون رتاجْ

حين اصطكَّت أحلامٌ قاسيةٌ

بالخبز القاسي

فانفجر من الزمن القاسي

الألمُ الوهَّاجْ

صار الفقراءُ سياجْ

فتحوا صمتَ مخابئهم

وامتشقوا الأسلحة السرّيهْ

نبشوا القهرَ

اكتشفوا فيه كرامتهم

واجتمعوا دون نداءْ

ضربوا الأرضَ بأرجلهمْ

فتساقط فقرهمُ عنهم

وانطلقوا في الأرضِ عراةْ

لم يلتفتوا لحطام الدورِ

وأشلاء الأمواتْ

فاصطبغ بهم وجهُ الأرضْ

عادوا

فاكتشفوا دمهم كلماتٍ

وأكاليل طغاةْ

والتعبُ المتراكمُ بين مفاصلهمْ

قد أصبح عِلَّهْ

عادوا كي يضطجعوا

بين حطام الدورِ

ولكن

وجدوا دورهمُ محتلَّهْ

وجدوا جنداً

وسياطاً

وزناةْ

والتفتوا مذعورينَ

مما فهموا العلَّهْ

كان «عليْ لا بوانت»

ممنوعاً من رؤية أحياء بلادهْ

فغزاها بالغضبِ الفائرِ

حتى انفتحتْ باباً، باباً

من ضربات عنادهْ

وتهاوى حين أتتْه الطعنةُ

من كفٍّ أخٍ غادرْ

كان «عليْ لا بوانت»

يتمدَّد في العتمةِ

مكسور الخاطرِ

وعلى جثَّته امتدَّت سِوقٌ شَبِقهْ

في «القصبةِ» كان الدَّمْ

يتيبَّس فوق الدرجات المحترقهْ

وعليه ركامٌ من دورٍ

لم ترفع جبهتها للأضواءْ

وعليها بصمات الفقر المدقعِ

والحظّ يخيِّمُ

والحيُّ يئنُّ ليسترجع رمقهْ

روائحُ فقرٍ عُتِّقَ

وتحوَّل خمراً عبقهْ

عاد المتثائب للمقهى

ولحبِّ الله

عاد العاطلُ للسرقهْ

عاد الأطفال إلى التدخينِ

ونشل الغرباءْ

والنسوةُ...

(كنَّ قصصنَ جدائلهنَّ

وألقين قنابلهنَّ على الأعداءْ)

عدنَ إماءْ

أو عدنَ إلى المبغى

مع زوجات الشهداءْ

والناسُ امتزجوا:

طلقاتٍ فارغةً

وملابس خلقهْ

فانتقلت للأحياءِ البرَّاقةِ

أسماءُ الشهداءْ

وانطفأت من دورِ الفقراء الأسماءْ

***

قال السادة من بيت الدَّاءْ:

«طوبى للفقراءْ

منحونا مجدَ الأرضِ

لهم ملكوت السمواتْ»

لا بدّ من التفاصيل

إلى أمل دنقل بلا مناسبة

عشرُ سنين منذُ أتيتْ

منتقلاً من سجنِ الحاجةِ

حتى سجنِ الإعياءْ

منتقلاً من حبِّ الله

إلى حبِّ الفقراءْ

في حضن مدينتنا

ألقيتُ عصا الترحالِ

وعانقتُ الوطنَ

وسرَّحتُ الخيلْ

قلتُ: سأبدأ من وطني

لن أتركهُ

ما لم نتمزَّق أشلاءْ

وبدأنا نتحرَّك فيه، ونصرخُ

هذا وطن الفقراءْ

هذا وطنٌ عادَ

لكي يغسل يُتمَ الأبناءْ

قلنا: نفتح بابَ جهادٍ

كي نلجَ الوطنَ

فيورق تحت ظلال سيوف الشهداءْ

عشر سنين نزرع فيه ونتعبْ

نشقى

وتكون حصيلتنا طحلبْ

نزرعه ليلاً

يحصده الجابي للوالي

قبل صياح الديكْ

ونهيم لنمتصَّ ضروعَ الصخرِ...

ونشربْ

يا وطني

لم نبدأ كي نلقى هذي الخاتمةَ السوداءْ

ونشيجَ على أبوابِ ثلاثين

لم نصرخ كي نلقاكَ أسيراً

فنغصُّ

ونسكتُ مقهورين

ولا نقوى أن نفديكْ

حين ربينا في أفيائك

وجهدنا أن تنمو فينا

أو ننمو فيكْ

حين نذرنا للشبر من الطولِ

العمرَ الوضّاءْ

وذرفنا الصبر دموعاً

علَّ دموع البائسِ ترويكْ

لم نحسبْ أنَّا سوف نُلاقي

هذا العلق المتشبِّث بين حوافيكْ

كنا نحيا كي تطلب منا

نحيا كي نعطيكْ

ونرى الآن ترابك نهباً

لا نقوى أن نصرخَ

عبَّاً ماءُ الخوف الأفواهَ الخرساءْ

من منا يا وطني

يجرؤ أن يعلنَ

عن خيبةِ أملٍ فيكْ؟

نعرف أنك ما كنت لتبخل عنا

عشر سنين عشناها

«عشرة عمر»

يجمعنا الآن الجوعُ

يجمعنا خبزُ القهرِ

وملحُ دموعْ

من سرق الماء إذاً منك،

لكي تبخل بالماءِ

ولا تسقي منه بنيك؟

عشر سنين

لم يتوسَّع فيك سوى جرح وخيانهْ

لم تزدَدْ إلا أسعارُ الخبز،

وأسباب الخوفْ

لم يزدَدْ غير بهاءِ (أبي رمَّانهْ)

لم نضمن في أزمة هذا السكن الخانقِ

إلا أن صار لكلٍّ منا زنزانهْ

الزنزاناتُ اتَّسعتْ

والأقبية اتَّسعتْ

صارت عنك بديلاً

من بيتي حتى الشارع

من وطني حتى سجني

لا يتغيَّر غير قناع السجَّانْ

أجهد عمري كي أحفرَ نفقاً تحت القضبانْ
لكني
خلف القضبان ألاقي عسساً وسجوناً
يا وطني
من زرع القضبانَ على الأضلاع المحنيّهْ؟
كنت زرعتُ على الصدر القصبَ الشادي
والورد الفتَّانْ
لكني لا أحصدُ إلا الأحزانْ
والأعينُ ترمقني
كي تعرف ما يطوي صدري من نيَّهْ
من أين أتيتُ لأرجعَ؟
من يرجعني للزمنِ الممكنِ فيه سكوتْ؟
من أين أتاني هذا العلمُ
فولَّد هذا الضيق المكبوتْ؟
خلَّاني كالسمك الهائجِ
يقفز ضيقاً من ماءٍ آسنْ
أو يقفز خوفاً من حوتْ
يُلقي بالنفس على اليابسةِ
فيرجفُ حيناً ثمَّ يموتْ
يا وطني

من منا قفز اليوم من الآخرِ؟

من منا مات على برِّ الآخر؟

عشر سنين أضرب كالغارقِ في السيلْ

أتخبَّط في الشارعِ

قدَّام الفتريناتِ

أتابعُ خفقاتِ الأضواءْ

أتشاجر مع حرَّاس الليلِ

وأنضمُّ لصفٍّ سكارى الليلْ

في كلِّ مساءْ أتلاقى بالأصحابْ

وننظِّم للحزن مسيرهْ

وعلى أرصفة المدن المبنية من عرقٍ ودمٍ

لم نملك غيرهما

كنا نتجوَّل كالأغرابْ

صرنا في كلّ مساءٍ

نبدأ سهرتنا مبتسمين مع الكأسِ الأولِ

نتجادل عند الكأسِ الثالثِ

عن وطنٍ محروقٍ

زكمتنا رائحةُ حريقهْ

نبكي عند الكأس الخامسِ

نتساءلُ

والقبضاتُ تدقُّ الطاولةَ الخرساءْ:

«السيلُ يلاحقنا

كيف يرون العيش أمانا؟

من يأخذ منا

إن أعطينا للوطن دِمانا؟»

نتشاجر عند الكأسِ السابعِ

يطردنا الساقي

فنعبِّئ ما ظلَّ من الليل صياحْ

نتساءلُ:

«كيف الناسُ إذا شربوا ينسون الأحزانْ؟

ولماذا لا تُسكرنا الخمرةُ

أو تنقلنا للأفراحْ؟»

نتصافحُ كي نتفرق على حذرٍ

نتهامسُ:

«من كان المخبرَ هذي الليلةَ؟»

نتجمَّع في أمسية اليوم الثاني

نتلصَّص إن كان هنالك أحدٌ

يتبع في السر خطانا

وننظِّم للحزن مسيرهْ

عشر سنين نتجرَّع وطناً في الأقداحْ

نتعرَّف فيه على الخيبة والقهرِ
ونغرق أنفسنا فيهْ
ندمنه يوماً يوماً
لا نسكر إلا فيهْ
ونراهُ صغيراً
فنحسُّ بأنفسنا أصغرْ
عشر سنين
وبرغم تزاحم هذي الأشباحْ
أصبحنا ماءً في بردى
صار النهرُ وتيناً أو أبهرْ
صرنا زرعاً وسط بساتين الغوطةِ
صار الوطنُ الكرمَ
ونحن دواليهْ
صار الوطنُ النهرَ
ونحن سواقيهْ
ونزفناه بغيظٍ
حين نُهرنا أن نرتاحْ
وتبادلنا نظراتٍ صامتةً قالت:
قد يطلعُ من هذا الليل صباحْ
عشر سنين لم أحصد إلا الضيقْ

لم يسأل أحدٌ عمّا يمكنني أن أفعلَ

إلا حين انتظروا التصفيقْ

عشر سنين في وطنٍ

نتيتّم فيه

ويُثكل فينا

ونجول به مهووسين ومهمومينَ

كمن حاصرهم في البحر حريقْ!

عشر سنين

لا صورة لي عندهم

إلا ما دُوِّن في تقرير المخبرْ

والمخبز مزروعٌ في جلسات الأنس صديقْ

يتبعني

فيحيل الشارعَ سجناً

والمنزل سجناً

يملأ كل طريقْ

يتلصَّص بين العين وبين الثغر المطبقِ

كي لا يُضطرَّ إلى التحديقْ

وأرى أقلاماً تكتبُ

في أيدي الأخوةِ

والأهلِ

وأصحابي

فأخاف التصديقْ

عشر سنين أدفع باب طموحي

فيقدمني لمطاردةٍ أو زنزانهْ

من منكم يا أصحابي

يا زملاء الحزنِ

سيكتب عني تقرير الليلهْ؟

من أنساكم طعمَ الخبز وطعم الملحِ

وعلَّمكن تقبيل الناس بغدر يهوذا؟

من منكم يتبعني مذ جئتُ

يعذِّبني في صمتٍ

يستدرجني لحديثٍ يكتبهُ

ويعانقني في ساعات الضيقْ؟

أنا ما زلتُ أفتِّش في خوفي عن كلماتٍ

أعرفها

ما صُكَّت في أفران الوالي عمله

أوقدها

كي تهديني في سجني

وتريني أرضي محتَّلهْ

أحملها وأنا أنتظر الموت بلا أكفانْ

أعبر سجنَ شبابي النازفِ

مقتحماً سجن رجولهْ

دون طموحٍ لبطولهْ

لكني

قبل رحيلي ممتلئاً بالقهر وبالأحزانْ

لا بدَّ وأن أرفع صوتي الآنْ

فلتسمعْ كلُّ الآذانْ

وليسمعْ هذا المُخبرْ

وهو يتابعني بالوجه المصفرْ

ولتسمعْ هذي الآذانُ الملصقة على الجدرانْ

إن كانوا سلبوا موسم وطني

ما زال لدى الوطنِ حنانْ

إن كان التقرير عن الحزن كبيراً

فأنا أتلاقى مع وطني كلَّ مساءْ

نتبادل في السرِّ الأحزانْ

إن كان الجلاد قد امتلأ بأحقادٍ

حتى خلَّاه الحقد ضريراً

فليعلمْ أني ما زلتُ أرى السيلَ

سيجرف هذا السجنَ

ويجرف مسجونيهِ

مع السجَّانْ

إن كان الغضب بعين الوالي

صار خطيراً

فالقهر بقلبي أخطرْ

والسيل القادم أخطرْ

والوطن المصفرُّ من القهرِ

يريد دمي

كي يرجع أخضرْ

إن كان الظلمُ بجعبةِ هذا الجلَّاد كبيراً

فأنا أكبرْ!

يعسّل التين فيك

وردة؟

أم فراشة ثلج بدت تتلألأ؟

أم دفقة الضوء ترقص عبر الرواقْ؟

أنت؟

أم حلم يترقرق،

والنجم يسطع؟

مهلاً.. لأرجع نبضي إليَّ

أميط لثام السنين

أنت؟

والتين عسَّلَ

مهلاً... أشمُّ روائح أذكرها

كان أولها كاحتراق الرغيف

بتنُّور قريتنا

كان فيها بقايا أريجك في النبض

أنت إذاً؟

سوف أستر توقي وأضحك

أمضي، وألقي كلاماً جزافاً

أتستر بالكبرياء لأخفي التلهُّف

ينهض في القلب طفلٌ

تناهى إلى ليله الرعدُ

أصغى... فخافا

عاد دربي إليك

ما عاد نهراً

إذا ما لها

أو تمرَّد لاقى ضفافا

أنت ألَّفت هذا الحوار بأرواحنا

أنت يا ألق البيلسان

ويا نجمةً غرَّدت وحدها مهرجانْ

أنت يا كل ما خزَّن القلب من فرح

كل ما جمع الوجد

واحتاجه الشوق

في حلكات الفراق

أنت يا كل ما جاع من أجله جسدي

أنت يا صدر دفء

تشوقت هدهدة

ثم إغفاءة من بكاء عليه

ويا كل توقي إلى الشجو بعد العناقْ

كنت صمتي بمنتصف الليل

صرت كأول أنفاس من شارف الاختناقْ

تستعيد الأماكن أسماءها

نلتقي

فتصيرين سِراً ليومي الرتيب

وهجعة سكري

ومرفأ خوفي

وأفق زمن الذي هدني ثم ضاقْ

وكساحرة تكشفين الستائر

أبصر حباً، تخفى كطفلٍ يلاعبنا

وتراه مع النبض مختبئا

ويراوغنا في رماد التناسي

ويرتدُّ مستعرا

بعد أن كان يخبو

وكنا حسبناه منطفئا

هو فينا كمين اشتياقْ

هو ذاك الذي يتسلل في همسنا

بعد حمى العناقْ

هو ذاك الذي يتألق في لغةٍ

تتوهَّج عند التقاء العيون

فيُضحى نداءْ

لإكمال ما كان مبتدئا

ونغافل ضوضاء أيامنا

ثم ننسل نحو سرير من النار والموج

ننسل نحو حنين إلى غفوة العري

بين أمان التفاصيل

ننسل

حرية هربت

كي تشدَّ على النفس أحلى وثاقْ

وأخيراً لنا غرفةٌ

ولنا ليلة وصباح

أحاديث عابرة

عندنا الوقت

لا نتعجَّل شيئاً

وتأتي الرغائب راشحةً في السياقْ

فنعري الهموم التي أزمنت

ونعري معاً جسدينا وأحزاننا

نتلاقى كما التقت الذكريات بوقع المطرْ

نتلاقى ونعرى بلا خجلٍ كالشجرْ

ثم نعرى لنسبح في لجّةٍ

حيث نستظهر الجسدين

ونطلب عون الحواس

لتسعف ذاكرة في النظرْ

تتصاعد أشواقنا ورغائبنا

كأريج مع الصبح

نعرى وندفأ فينا

ونشجو ونكسل

ثم نميل كغصنين وسط الهجير

إذا امتد فينا الخدرْ

وننام ثمالات عتم الليل

وحتى تيقُّظ حمى الفضول

إلى ما نسيت على وهجنا

اسأل التين كيف يفارق أوراقه

ثم يحمل هذا الثمرْ

وأراك كأني اكتشفتك في غصن تينٍ

فأسأل كيف يعسِّل فيك الثمرْ

ثم أسأل كيف تشكلَّتِ مثل الغيوم

وأنتِ القمرْ

نتألّق

أنساك في ألقي

ثم نخمر سبعاً طباقاً

تغورين

أسأل كيف سيهدأ عريك، إن هدأَ

كان حبُّك لون دمي

وبه كنت ممتلئا

ونظل بعيدين، عمراً جديداً،

ليبقى الهوى ظمأً

نلتقي مثلما يأمر الصحو

كي نشرب الشوق خمراً

ترفرف زقزقة من بكاء السواقي

على منحدرْ

ينتشي في محياي ضوء

إذا ما رأيتك

حتى كأني تلقيت أول لمس المطرْ

صور مبعثرة

- ١ -

كان يطاول النعاس بالكلام

قال: أريد زعتراً

فجاءه الزعتر في عباءة الرغيفْ

وقضم الطفل من الزعتر لقمتين

فاجأه دم يعبِّئ الفم النظيفْ

هل ينزف الزعتر؟

أم يجرح الزعتر جلد الشفتين؟

هامت به الأفكار نحو النوم والأحلام

فأسبل اليدين

أفلت «العروس» ثم نام

ولم يفق

بالرغم مما زوبعت من حوله الأيام

- ٢ -

ماتت أمي

كانت غاليةً فبكيناها

وتجمعتُ وأهلي

وتقاسمناها:

ذكرى، صوراً، كلماتْ

مزَّقناها

وتبادلناها

حتى ماتت غيظاً

لم يبقَ بها شيء إلا... ماتْ

- ٣ -

كنا معاً

ومعاً تهامسنا على عشق

يصير مؤامره

هي ومضة ما بين عينينا

وينكشف الغطاء عن الوحيد

يعدو، يفتش عن رعايا غيرنا كي تستره

سرنا، وأفردناه

حيث الأرض لعبتنا

سرقناه كره

- ٤ -

كان لها خجل العذراء

تضحك أو تطرق في استحياء

تتورد وجنتها إن حاصرها الإطراء

إن حُسر الثوب عن الساق الملساءْ

أو طيَّر ذاك الثوبَ هواءْ

وتهوِّم في الأحلام عن الفارس

يأتي فوق الفرس البيضاءْ

جاء الفارس في باص مزدحم

وتزوَّجها

ولكي يسترها

أخفاها في البيت عن الغرباء

عرفت جسد الزوج

تعرَّت ليديه

وأمعنت النظر إلى فخذيه

ذهبت لطبيب عرَّاها

فتَّش أسرار أنوثتها

أعطاها توصية ودواء

فتحت ساقيها لطبيب راقب أشهرها في الحمل

وأولدها طفلاً

فتحت أزرار الثوب لتخرج منه ثدياً لرضيعْ
ما عادت تطرق في استحياء
ما عاد حديث الناس عن الجسد مريعْ

- ٥ -

قال: النار
قالت: هو البرق المشحون
الشرر الحامل مع بشرى الأمطارْ
قال: النار
تساءل: من أين الحطب وراء الغيم
ومن أين الأشجارْ؟
قلت له: هذا برق
فالكون مليء بالأسرارْ
بعد قليل تسمع صوت الرعد
الرعد هو الصوت الجبَّارْ
قال: النار
قلت: البرق
وجاء الرعد
فشبَّت في البيت النار
وانهمرت من فوق الغيم غصونٌ تحترق،
وأشجارْ

- ٦ -

رأى قمراً

تخيَّل أنه قمر

رأى قمراً ينام على وسادته

فظنَّ بأنه قمر يلاعبه على الشباك

تمنى أنه معه

على الشباك ينتظر

رأى في حلمه قمراً

فظنَّ بأنه النوم

الذي يأتي مع الإنهاك

رأى ضوءاً

تخيَّل أنه نهرُ

وراح مع المياه إلى بحار اللهو

فاجأه بها قمر مع الأسماك

تمنى أنه قمرُ

يسير وفي يديه حذاؤه

يمشي بلا خوف

ولا ألم على الأشواك

رأى قمراً يجوس الليل في صمتٍ

فخاف عليه

حذره بأن العتم في أعطافه الخطرُ

وأيقظه صباح لا يلاعبه

فظنَّ بأنه الحزن الذي يأتي به المطرُ

رأى في عتمه قمراً

بكى إذ حاصرته قسوة الأسلاك

رأى في الجو طائرةً

فظنَّ بأنها قمر يطير

وأنه بطرُ

رأى قبراً تخيله سريراً

نام في أعماقه الشجرُ

وتحت وريقة خضراء

يغفو حالماً قمرُ

رأى موتاً على الأشجار يدعوه

تذوقه، فأعجبه

ونادى أمه:

هيا كلي معنا

فهذا كلُّه ثمرُ

غيوم لصيف الجسد

فرحةُ الشمسِ فوق صباح الندى
أوقدتكِ على القلب
ورداً من الرقصِ
قفزاً من الماعز الجبلي النفورِ
على قمة من غمام
وانتظرتكِ،
لم أرسل الغيمَ
أو نسمةَ الصبحِ
لم أربط الشوق حتى بزغبِ الحمام
كان لا بد أن تُقبِلي،
القلبُ
والبيتُ
والجلد، في جوعه للأناملِ،
برد الفراش الذي يغتلي...

كل شيء توقَّعَ...

لا بد أن تُقبلي

قلتُ: لا بد هذي العصافير واشيةٌ

والغروبُ لإسكاتها،

بُعدها وانسكاب الظلام

وضجيجٌ من اللغو يستر شوقي

ويوصله

دون أن يفضح الرغبةَ السافره

كسجينٍ يحاصره سجانه

كان شوقي الكتوم يعبّئ دنياكِ

أنّى اتجهتِ ستلقينه

هل تألقتِ في المهرجان؟

أنا كنت ضوءاً فريداً عليكِ

وحين تملّيتِ ساقية الهيجان المعربد فيكِ

تملّيتِ وهج ارتعاش الأنوثة عاريةً

كنتُ في سطح مرآتك النظرة الداعره

تتعرين كي تستحمي

يدي تترقرق في الماء

فوق سطح الجسد

إذ تراخيت في نغمةٍ

كنتُ أنسلُّ ما بين صوتينِ

أهمس وسوستي واشتهائي

وحين تلحفّتِ كي تهدئي من رغابي

تسللتُ

دفّأت زغباً على مسرب الظهرِ

تكميشة الجلد في الخاصره

كيف يعرقُ ما بين نهديكِ

لا يتنشق قلبكِ رائحتي؟

كيف تزقو العصافير جائعة في دمائكِ

لا تسمعين بتغريدها رنة اسمي

تباهي بأجراسها كالولد

ثم لا بد أحسسِتني

إذ تلحّفتِ عريك

بعد تراخيك هادئه فائره

فلعل الذي بيننا قد تحقّق في الحلم

أو قد تألق في ومضةٍ

ولعل سعاراً من الجسدين تسرّب في الذاكره

زاجلٌ ظمئي

يتحلَّب ذاكرة من ينابيعك البكر

يدنو غريباً

ويلقي بكل ابتسامة تعريجة في ثناياك

وهجَ بلد

يتقلب فيكِ

فيطلب غير الذي يشتهي العاشقون

وإذا يتقرّاك توقاً

يراكِ بهمس أصابعه

يتقرّاك...

حتى كأن الأصابع باغتها ومضك الشهويُّ

وأجهدها الجوع إذ جَرَّها

مثل حبل المسد

أنت أدهشتني بالتلامع

كيف أقلب طرفي ولا تسطعينَ؟

وكيف تجيء إلى الشارع الشمسُ

لا يرتمي منك ظلٌّ رخيمٌ

على سهر من رمد

أنتِ، يا حزن تكبيرةٍ

في الصلاة على الغائبين،

أذان المساء بعاصفة

ورنين النواقيس فجر الأحد

أنتِ يا نَفَسي حين أنجو من الغرق المرِّ

صوت الأمومة في قلب طفل يضيع

وأنت بياض النوارسِ

للسفن التائهات ببحرٍ جمد

إن ظلاً همى بيننا

فتألق فينا

وصوتاً تسلّل من لمسنا

فتبلل منا

وأنت معي

نجمة الصبح غائبة حاضره

تتغاضين عن شغفي

رغم إطراقك حيرى

ورغم التماكر في اللفتة الضامره

سأمر بهاجسك المتوهج مثل اللهاثِ

كنهدة ريحٍ على شجر

وحفيف فم في جدائل مرميةٍ سادره

كنتُ هيأتُ غابات حزني

وأورقتُ فيها

وزقزقتُ... أدعوك أن توغلي

كيف لم تُقبلي؟

كلُّ ما بيننا خطوتان

كلُّ ما بيننا غضبُ الله والناس

والخوف يغزل جفوتنا

وسرابُ المكان

وغدر الزمان

كل ما بيننا ليلتان

كل هذا الجنى قبلتان

ورجفة كف

ورعشة حلمتك الساهره

أمس بادرتك الآه لم تنكريني

وعريتُ سر الرغائب لم تستريني

أتيتِ إليَّ مع الضوء

كنتُ الظلام الذي

يتلهف أن يتبدّد

قلتُ: اعبريني

فأغفو بهدهدة من حنانٍ

وإني اشتهيتك أن تقتليني

لأعرف كيف يكون الأمان

حين جعتُ إليك

ابتكرتك شِعراً

وأخفيت وجهك بين حنايا الكلام

حين ذقتك في الكأس قبل المدامِ

خلوت أجمّد عاصفتي

كجبال رست من أبد

كل ما بيننا

غيم صيف تولى

وخاف امتلاء حناياه من مطري

فمضى دون ظل

لتخلو المدائن والقلب من ذكره

ثم تخلو القصائد

والسرر المستريحة

حتى كأن

لم يكن قبل فيها أحد

زائر الليل

دبيبٌ في دجى الأعشاب؟

أم خطوات من أضناهم السهرُ

أم المحظور حلَّ

وجاء من أخشاهم في الليل

لف خطاهمُ الحذرُ

سمعت الصوت

فالتحفت ظنوني صمتها

حتى تفشّى في خلايا صحوها الخدرُ

وراء الباب

تحت ظلام نافذتي

تسرب ما بدا همساً

فداريت المخاوف

قلت: همسات يهيم ببوحها الشجرُ

ولكن بردُ هذا الليل

جَمدً كل شيء

والخطا تدنو

وشيء ينقر الشباك

قلت: لعلها امرأة تراودني

ويمنعها من الإفصاح

عن رغباتها الخفرُ

وخطوات تسرب صوتها في السقف

حتى الباب يرجف دون ريح

وارتجفت

لعله قد جاءني الخطر

أداري مرة أخرى المخاوف

علهم صحبي

أتوا لجنون بيتي

شَدّهم وسط الدجى السمرُ

ولاستقراء صمت البيت

أوقفهم تأدبهم

أأتركهم بهذا البرد

بعد وصولهم بابي

لينتظروا؟

وتعبر نهدة بالباب

تمتمةٌ

وهمس شجيّ

إذاً هذا بكاء

والذي بالباب محتاج

إلى دفئي وتعزيتي

فتحت الباب

كان الليل يغفو هادئاً

كل الظلام على فراش البرد ممدوداً

وفاجأني بلمسته الحنون

وبردُها يسري وينعشني

وعاجلني بقطرات الدموع على جبيني

كان يهمي واقفاً في البرد

يبكي وحده... المطرُ

وحدك، الآن، قليل

كنت أمزح
حين ألقي وردة من عتب وسط كلامي
قال: هل تكتب عني؟
قلت: لا بد، ولكن...
حين تذبح
يا صديقي
أمحل الوقت وضاق
ليس الود تلاوين عديده
أنت لا تصلح إلا لقصيده

***

كان في قلبيَ سر... يتعرى... ثم يجرحْ
أنا عودت قوافيَّ على طعم دماهمْ
وتعودت بأن أقضي رغابي في حماهم
وتعودتُ بأن أستلهم الحزنَ

الذي يسودُّ غيماً في سماهم

لم أكن أمزح،

بل كان كلاماً ضاغناً

يلتذ أن يوغل في الجرح ليصدخ

ثم يلتذُّ بأن يمعن في القول

ولا يخفي رذاذاً قانياً

ينثر ضحكاً دامياً فوق الصور

وهو يختال ويجترُّ كلاماً كالدرزْ

***

إن سلطاناً على العرش تعالى

فوق أشلاء الضحايا

إن سجّاناً أراح السجن بالقتل

وأسواقاً زهت

إذ عرضت أشلاءهم

تُغوي وتربح

ملأت جدرانها من صور القتلى

تمادت،

عندما حَولّها تجارها الصيد كمذبح

فلماذا أنا يخزيني اعترافي

ولماذا لا أباهي بدمٍ يقطر من هذي القوافي

ميتون
أُغلقت من حولهم ذاكرة الناس
كما تُغلق أبواب السجون
فلأودع من أواري بـ «العوافي»
ما الذي يمنع أن أسأل حياً:
«ومتى سوف تموت؟»
ليس ما يُحرج لو مازحتُ مَيتاً
لو تظارفتُ أعزي أهله
أقتلهم ظرفاً إذا خيرتهم بين المنافي
إن من مات يموتْ.
وخطا الموت تدق الآن أسماع البيوتْ
وَهيَ إيقاعٌ وحيدٌ وسط غابات السكوتْ
إنما الميت غباء صامتٌ
والقتل للسلطان قوتُ
وأنا يحضنني أهل القتيل
أرقب النسوة في الندب
أُعزي صيدي المقبل فيهن وأفرحْ
وأصيخُ السمع كي أعرف أشهى امرأة من ندبها
أجمل صدر يتبدّى من ثيابٍ مُزّقت حزناً
أداري أنني أسترها... ألمسه

ثم أداري،

أدعي حزناً بأني لم أره

إنني أُرهقت بالسير جنازات

إلى صمت جدار المقبره

وأنا أسأل نفسي:

كيف أبدو بعبوسي في أسى التشييع

بالصمت، وبالشَّعر المسرح

كيف أبدو لنساء في الشبابيك

يراقبن المعزين، وينشرن شِباك المفخره

إنني أُرِهقتُ من هذا العزاء

هيئوا لي مجزره

هيئوا لي مشهداً يصلح للشّعر

لماذا تجهضون الشعر بالموت فرادى

كل ما أطلبه منكم دمٌ يملأ هذي المحبره

صرت أستلهم إيقاعي من حشرجة القتلى

وصار الذبح إلهاماً لشعري

عَلَّه يصبح أوضَح

أيها الصحب الذين اقتربوا مني كثيراً

هيئوا لي مجزرة

إن شعري استمرأ الطعم الذي ذاق بـ «صبرا»

لم يعد ينفعني الصمت الذي يشمل ليل المقبره
ولماذا ينتشي الأعداء بالقتل
ولا أكسب شِعراً
وألوفٌ جاهزون الآن للذبح
رؤوس يانعاتٌ للقطافِ
ما الذي يمنع أن تُلقَى بحضني
ثم أختار لتزيين القوافي
وأباهي بمعانيها الفريده
يا صديقي
كان في القول مرايا
أظهرت وجهي القبيحا
وأنا أهرب من مرآة عينيك
التي تظهرني أقسى وأقبح
أن ما تسقط فيه
كان سراً لاندحاري وانحداري
لم يعد لي من خيار
دمك الآن ابتدا يقطر إيقاعاً شهياً لموشح
يا صديقي
جَمِّع الأهل،
اصنعوا لي مجزرة

وحدك، الآن، قليلٌ في مزاج الشعر

فالرؤيا عنيده

وحدك، الآن، قليل

لم تعد تصلح حتى... لقصيده

قصيدة ينقصها شهيد

هي ورقةٌ من توت

كان اسمها بيروت

سقطت فما عرت سوى التابوت

***

ما غادر الشهداء في بيروت من متردمِ

وقصيدتي لم تكتمل

ما زال ينقصني شهيد

ما زال نصف القول محتقناً

ويحرق لي فمي

ما زال باب الجرح مفتوحاً

وهذي الأرض لم تشرب دمي

والشِّعر يطلب جثة معروفة

تأتيه قافلة من الشهداء من بيروت

لكن لم يزل عندي يطالب بالمزيد

أحتاج من وطني شهيداً

كان يعرفني

وتعرفه حوارينا العتيقةُ

حين أبكي فقده

أبكي بلادي فيه

دمعي كان يملؤني على مرأى بلادي

كنت محتاجاً إلى عذر لأذرفه

فلا يكفي اندلاع الموت في الجسد الفلسطيني

صار عليَّ أن أجد الشهيد لأهل قريتنا

وإلا فلنشمِّر للسباق

لحضن ملجئنا الطريد

سأعبئ الكلمات أضرحة

تليق بمجد من صنعوا لنا في الشعر

ديوان المفاخر والتهاجي والوعيدْ

الحزن يسرح في الوجوه ولا يليقُ

الحق يسجن في القلوب ولا يطيقُ

الضيق أقرب لاختناقي

كنت أتقنت الخسارة

وسط حشدٍ هائم خلق المغانم

والجميع يهللون الآن إصراري على هذا الرهانِ

كأنني -جهلاً- غشيت لهم وغىً
وعففت عند المغنمِ
وتهلل الشعراء حين تيقنوا من أنهم
ما غادروا، في الشعر، إلا مأتمي
وأنا اليقين بأنه
ما غادر الشهداء لي
ولمن يغض الطرف عن بيروت
من متردم
وقصيدتي لم تكتمل
ما يزال ينقصني شهيد
يا أيها الأهل الذين يعبّون عكاظ
يلزمني شهيد
يا أيها الأهل الذين تزاحموا في السوقِ
ساقهم الولاة كما تساقُ النوقُ
حَوَّلهم دعاة الأمر جوفاً صارخين،
كما يصيح البوقُ
يلزمني شهيد
يا أيها الأصحابُ والأطفالُ والأزهارُ
والشجر المغردُ في دمي
ما زال ينقصني شهيد

يا أيها الأولاد والأحفاد والأجداد

يلزمني شهيد

يا أيها الشعب المكَبَّلُ بالقيود

وأيها الشعب المقبَّل في الوعود

وأيها الصحفي والمذياع والأستاذ

يلزمني شهيد

ولتسألوا في كل ميدانٍ قريبٍ أو بعيد

خلف ماضينا التليد

بيروت أعرفها ولكني سأعرف

هل هي النبع الوحيد

كُومٌ من الأشلاء، أعرفها وأحصيها

وينقصها شهيد

وأريده من خارج الأسوار في بيروت

من غير المنابر والدفاتر

غير أسواق النخاسة

غير قافلة العبيد

وأريده من غير من دهُسِوا

ومن ماتوا بأقبيةٍ

وغير الغارقين

وغير من ماتوا بغيظ

أو بطلقات من الحراس

أو ماتوا على الجدران مصفوفين

أو ماتوا بأطواق الحديدْ

ما زال ينقصني شهيدْ

إني سألت شوارع المدن التي هُدِمت

- كما قد تفعل الحرب الضروسُ -

فلم تجبني

كان فيها ألف طفلٍ دونما أهلِ

وألف سبية يأتي إليها العار من أهلِ

وفيها كل قتلاها وموتاها وأشلاء العبيد

لكنها لم تعطني من أجل أغنيتي شهيدْ

هل كنت محتاجاً إلى بيروت؟

هل كنت محتاجاً إلى تمزيقها؟

لأقول أني عشت هذا العمر في تابوت؟

جثثٌ على مرآتنا

هل كنتُ محتاجاً إلى جثث لأكمل صورتي؟

هل كنتُ محتاجاً إلى هذي الدماءِ

لكي أوضّح بصمتي

الصمت ينبئني بأن الموت يأتي نحو أحياء

ولا يأتي إلى من يستريح على حدود الموت

لكنني ما زلت أصرخ جامعاً كل العنادِ
إني أريد بأن يكون معي شهيد من بلادي
كي أشارك إن تفاخرت المصائب
بين أسماءٍ وخنساءٍ وهند
حين ضاع الندب في حمى المزاد
جيش وأوسمة وقتلى... ما الذي نشكو؟!
قذائفُ وانتهاكاتٌ وأبنية تهدَّم
ما الذي نشكو؟
جراحٌ، كبرياء أُهدرت
وبلادنا تسيء كما قد يفعل الأعداء،
أرضٌ لا حدود لها
ونقعٌ كالهجوم
فما الذي نشكو!
خطاباتٌ، تصاريحٌ، إقاماتٌ
وأسلاكٌ مكهربةٌ
سجونٌ
قاتلون،
فما الذي نشكو!
صلاةٌ، ثم أدعية على الأعداء،
«بسم الله» في الأنباء

مالٌ، كالمياه، يفرّ من بين الأصابع،

ثم للفقراء أودٌ دونه خرط القتادِ

لي أصدقاء واقفون

وباسمون أمام موتهمُ

يجيء إلى مسامعهم ضجيج الحربِ

تغلي في العروق دماؤهم

تدمى الشفاه من الحماسة

يمتطون ذرى البروج

لكي يدقوا بالكعوب حجارها

إذ يشتهون الخيل والغارات

لكن تُمنَعُ الحرب التي يبغونها

أو يُمنَعُ الموت الذي يبغونه

لكأن فينا من يصون صناعة الموت المحلى بالأصيلِ

فيمنع استيراد ذاك الموت من أعدائنا

وأصيح:

حلّوا القيد عن زندي

لعلّي لا أموت مقيداً

ولعلَّ موتي لا يورِّث كل هذا الخزي

لا يرث اليتامى منه خوفاً

فالسجون لدى العدو، اليوم،

أرحم من سجون بلادنا

والأسر أرحم من تجبر أهلنا

- إذلال ذي القربى أشد مضاضة -

والقتل قتلٌ حيثما أهوى

لكي لا نشتهي عيشاً مع الأعداء

صرنا نشتهي موتاً على أيديهمُ

وشوارع المدن الصغيرة، في القتال

أعز من دول تخاف كرامة الأبناء

تحمي ثغرها الخطبُ

فيجيبني الطاغوت:

«إنا هَهنا عربُ»

وأقحاحٌ من النبض العريق مع الوتين

إلى التدفق في الوريد

الطامعون بأرضنا، أو عرشنا، عربُ

لذا أعداؤنا عربُ

والموتُ لا نرضاه مما يصنع الأعداء

بل نرضاه مما يصنع العربُ

عربٌ

أباة الحيفِ،

أهل السيفِ،

يفرحنا قدوم الضيفِ

في عشقٍ نخاف حرارة الأجساد

لكنا يذوبنا مرور الطيف

للإنجاب والنزوات تكفينا جوارينا

ويكفينا من الدنيا

رحيلٌ للتجارة في الشتاء

ومثله في الصيفِ

إنا هَهنا عربُ

شعوب الأرضِ ترهبهم إذا غضبوا

وشمس المجد تُشرق حينما ذهبوا

وهم أهل المضارب والمضائف والمناسف

والكِفَاف الحمر،

أرض الله واسعة لملعبهم إذا لعبوا

وأسأل: أيهم عربُ؟

هنا عَربان...

لي عرب الشهادة والمجاعةِ

للعدو عروبة الطغيان والتجارِ

أعراب وعربانٌ

وإني منهم في الضيق عربانٌ

ولكن أيها الجيش النظاميُّ

الذي اختلفت عليك مدينتانِ

قتلتني في الجولة الأولى

وبعدُ قتلتني كي لا أغيث الثانيه

وتقول إنك تصطفيني للحروب التاليه

هل كان هذا كل ما أبقى لنا الطاغوت؟

هل كان هذا كل ما عرَّته من أوساخنا بيروت؟

من كان يعرف أنها بضجيجها في السلم،

أو بصراخها في الحرب،

تخفي ذلك التابوت

وغداً سنعرف قيمة الواحات

حين نجابه الصحراء

كالحسرى: نجفُّ... نموت.

يا ورقة من توت.

كان اسمها بيروت

سقطت... فلم يسقط سوى التابوت.

***

ماذا أساوي فيك يا بيروت

إذ ضاق الحصار

بالأمس أفردها الكماة على المضائق

تستجير فلا تُجار

هلاّ سألتِ القصف يا ابنة مالكِ

هلا سألت الطائرات

الأرض تغرز بالكمائن

والسماء تهلُّ صاعقةً... فصاعقةً

يجيء إليَّ قصف كالزوابع

يجبر الأرض العزيزة أن تُري أثقالها

والقصف يغزر حولنا

وروائح العفن الأليف تفوح من حولي

فهل كانت قذائفهم معفّنةً؟

أمَ أنَّ القصف فجر كل أوساخ أحاطتني

من الميلادِ

إني قد وقفت أقول للدنيا:

امنحيني لو مكاناً واحداً

هل تَمَّ تجميعي بهذه الواحة الخضراء

كيما تُحرقَ الأشجارُ والأعشابُ؟

كان البرد يقتلني

وكنتُ أريد دفءَ أُخُوَّةٍ

شكراً لهذا القصف

عَرَّاني

وأخرج كلَّ ما في جوف مزبلة الأُخُوَّةِ

من روائحَ

أو عواطف مخجلة

بصراخِ ثكلى -حين أيقظني-

رأيتُ النبضَ، أبصرتُ الهواءَ

ولم تكن حرباً

ولكن حكمُ إعدامي يُنَفَّذُ

والذين تعلموا أنشودتي

كانوا، بلا خجل هنا، قد علقوا أنشوطتي

خصمي يريد الأرض خاليةً

ودنيا تستريح مع القتيلِ

يقضُّ مضجعها الجريحُ

لذا تطالب أن أموت

لكي تُحلَّ المشكلة

جثثٌ على المرآة،

هل حوصرتُ في المرآةِ،

أم أنا جثة؟

ما زلت أضرب في البلاد مهاجراً

فكأنني كنت المكلف أن أقيس الأرضَ

شبراً بعد شبرِ

أن أقيس الأهل غدراً بعد غدرِ

أن أقيس العمر قهراً بعد قهرٍ

أن أقيس الموت صبراً بعد صبرٍ

كان حولي الصمتُ يطوي كل شيءٍ غير حشرجتي

وكان النزعُ أطلقه رعوداً

كان صمتُ العالم المرتاحِ

يسترخي أمام مَشاهد التلفاز

كانت بينها صوري مكررَّةَ:

أقاتل، ثم أُقتل، ثم أنهض، ثم أركض، ثم أرحلُ، ثم أُقتلُ

كم وددت لو أنني قدَّمتُ عذري

لو أتى موتي إلى المتفرجين مهدِّئاً

لكن أعدائي أبوا

لم يقتلوني مرة مثل التي سلفت

ولم يتعود الجمهور موتي

لو أتى موتي إلى المتفرجين مسليّاً

ما كنتُ أرغب أن أموتَ،

المعذره

يا زائراً بيتي

تقبَّل عذر صعلوكٍ تلحَّفَ بالردى

يا زائراً «صبرا» و«شاتيلا» تمهَّل

أستميحكَ معذره

يا زائراً بيروت

من درب المخيم

من طريق «المتحف»،

«البربير»

من عند المطار

طريق «خلدة»

ما الذي سأقول إلا المعذره

إنا قُتلنا بغتةً

لم نُستَتَشَر

لم ندرِ كيف نُعِدّ أنفسنا

لهذي المجزره

يا زائراً... لا تمتعض

إن الذباب يحطُّ فوق جسومنا المتبعثره

لم نلقَ عطراً كي نرش على تفسخ هذه الجثثِ

التي تُركت بعرض الشارع المهدومِ

لم نجدِ الإذاعات التي تعتاد قصف الخصم في خطبٍ

لستر العار بين العسكر المهزومِ

لم نلقَ البكاء لنختفي في دمعة المظلومِ

ما أبقى لنا الإعصارُ إلا هذه الصورَ الممزقةَ

التي تحوي العوائلَ، والبلادَ مدمره

لم يُمهلونا كي نلمَّ دمارنا... فالمعذره

ما كنتُ أرغب أن أموت

ما كنت أرغب أن أموت أمام أهلي

غير أن القاتلين تعجلوا

والنادبين تعجلوا

لم يمهلوني كي أغطيَ جثتي

وألمَّ أشلاء الصغار

ما كنت أرغب أن تراني عارياً

من قبري الموعود في ضوء النهار

ما كنت أرغب أن أموتَ

صرختُ حتى فاق صوتي غارة الطيرانِ

حتى فاق صوتي كل زمجرة القنابلِ

واخترقت بعنف صرخاتي جدار الصوتِ

إني قد صرخت لمن يجيء بنجدةٍ

ولمن يطوّلُ باله في القتلِ

لم يسمع صراخي عابرٌ، أو شاهدٌ، أو قاتلٌ

وطلبتُ أن يتوسع الميدان

أبقى في القتال

طلبت أن أحمي صغاري أو بلادي

وامتشقنا بعض أوجاع المخيم والمنافي

كي نفلَّ بها حديداً
غير أن الأرضَ، كلَّ الأرض،
خافت من سلاحي،
أقفلت آذانها عمداً
لتغفل عن صياحي
جردتني من سلاحي
ثم... ليلاً...
في ضجيج الصامتين
أتت إلينا المجزرة
ما كنت أرغب أن أموت
رجعتُ أكبرُ في الصغار
رأيت أشباحاً بشارعنا
سمعت كلابنا في العتم
حشرجةً من الجيرانِ
أضواء تهلّ من السماءِ
سمعت غرغرةَ الذبيحِ
صراخ جار،
صليةً
«وتمط أرجلها الدقائق تستحيل إلى دهور»[1]

---

(١) البيت لخليل حاوي.

خطوهم يدنو إلى بابي

وطفلي شبَّ نحوي

زوجتي ألقت علينا نظرةً مذعورةً

والكلب يشرسُ

ثم ضربات على الأبوابِ!!

أهربُ؟

من سأترك من صغاري بينهم؟

من سوف أحمل منهمُ

ماذا سأحمل من بلادٍ عشتها

وتجمعت في القلب تطلب نجدتي؟!

وخرجت بالأطفال

والنسوانِ والجاراتِ والحاراتِ

والأيتام والطرقاتِ

والطلقاتُ تتبعنا

أهمّ إلى نجاة... لا أراها

أو دروبٍ... لا أراها

استقبلتنا عتمةُ الصرخاتِ والآهاتِ

فاجأنا الرصاصُ

ولم يكن أحدٌ يشاهدنا

ولا أحد يساعدنا...

فمتنا!!!

لم نستّر ما تعرى من مباذلنا

وما كشفته تلك الليلة الليلاء

من عورات ماضينا

ومن كل المخازي، خلف أبواب المخيم،

عند أهلينا

ومتنا

دون ترتيب وتنظيف

فللزوار والسياح والأغراب

منا المعذره

لم يمهلونا كي نغطي بعض سوءاتِ المخيمِ

نرتدي بعض «الغلاليب»[١] التي تستلفت السياح

أو بعض «التنانير» التي صارت تميزنا

لأول مرة ألقى نساءَ من حمولتنا[٢]

عرايا في الطريق

ممددات دونما خجل أمام العابرين

ولم يقم رجل غيور

إذ يرى عرياً يسارع نحوه كي يستره

---

(١) جمع غلّابية: اللباس الشعبي للرجال والتنورة للنساء.

(٢) قبيلتنا.

المعذره

هي ليلة القدر التي قصرت

وصارت كالثواني في حوارينا

ظنناً بوق إسرافيل يدعو للنشور

فلم يقم موتى القبور

وكان – كما خشينا –

جيش إسرائيل يزعق بيننا

فتساقط الأموات من أحيائهم

وتعبّأت صبرا وشاتيلا

وفُرّغت العواصم من عروبتها

– وأعني: من كرامتها –

وكانت جمعةً ملغومةً

لم يستطع أحد وصولاً للمساجد

كي يصلي للثواب جماعة

لشيوخنا الأبرار والأطهار منا المعذرة

هي جمعة صُنِعت لدى أهل الكتاب

وحين جاء السبت

كان العُرب مقتولين

في كل القبائل والطوائف

والفلسطيني، في كل العواصم،

وقد مُنعت شهادته

التي تدعو إلى عز الكفاح

في كل عاصمة أراها

أقتفي أثري الذي ضيعته

فيقودني للمقبره

وأغوص في التاريخ أبحث عن ملامحهم

فألقاها وقد صارت دكاكيناً لبيع لحومنا

حيث اللحوم مُسعَّره

وأنا أطالب بالشهيد ولا يجيء

ولست أدري، بينهم،

من أخَّره

يا أيها المتسلقون على حبال نحو غيمات الرشيد

يا أيها المتبعثرون من الفرات إلى ذرى أوراس

لليمن السعيد

أدعوكم، جمعاً، إلى موت رغيد

علّي أرى فيكم شهيد

جثثٌ على المرآة

والأرض الفسيحة حولنا

سطح جليديٌّ

تحرك تحته الأعداء فانكسر الجليد

إنا نغوص،

وليس يجدي من تشبث بالشظايا

كل سطح من جليد ذائبٌ

والكل غرقى في الصديد

جثث على المرآة

والأرض المجيدة حولنا مستنقع نتنٌ

أمرّ على تناثر هذه الأجسادِ

أبحث عن ملامحيَ الشهيدة لا أراها

عن توابيتي القديمة... لا أراها

لا أرى إلا مطايا

أسرعت نحو الخليفة بالسبايا

لا أرى فيها سوى نطع

ورأس عند أقدام الخليفة

رحت أسأل رأسي المقطوع في حسدٍ:

ترى هل كنت في بيروت؟

هل كان التراب شقيقك التوأم؟

حوصرتَ حتى صار من ظمأ كمينك

إذ تجفف حولك الماء اليتيم

فرحت تشرب كي تبل الريح من علقم

هل كنتَ في بيروت؟

•

تنثرك القنابل غيمةً؟

فتعود نحو الأرض في مطرٍ

وترفض أن تموتَ

وترفض الإذعان حتى للردى الموقوت

إني رأيتك تستعد لصنع معجزةٍ:

وضعتَ يديك تحت مدينةٍ كان اسمها بيروت

وأردتَ ترفعها إلى الكتفين كي تمشي بها

فتشبّثت كل الأراضي والمدائن

والتواريخ الكئيبةِ

تبتغي قربى لبيروت الصغيرة

كيف ترفعها

وترفع باسمها الدنيا؟

تنخّ وأنت ترفعها... ولا تُهزَم

وتقلّب الطرف الكسير

بهذه الدنيا الوسيعة:

أين تمضي؟

لم تعد تعلم

هل تفهم الأمواج والسفنُ

أن الذي نسعى له وطنُ

وطنٌ صريحٌ كالرغيف لنا

لن ننثني مهما غلا الثمنُ

وطن الغراس ونحن نُنبتها

نعطي دماً إن ضنت المزنُ

ما زلت ألتمس الشهيد له

فألـمّ ما جادت به الفتن

أبغي دماً يزكو ويسكرني

لكن هنا يُستَنبتُ العفنُ

أنا عابد الوطن العليّ وفي

صلواته يتسلل الوثنُ

هل ضاقت الدنيا على حلمي؟

أم ضاق بي؟ أم جُفِّفَ الزمنُ

أبداً تسير إلى المنافي عارياً

في كل منفىً ترتدي مدناً مهلهلة...

تجددها

لتصبح مثل درعك

أو تسير إلى المنافي تائهاً

فترى المدينة لُخِّصت بالسجن

والسوق الرخيصة والبغايا

أنت تغسلها من الرجس القديم

تصير طاهرة

كما المدن التي يتجندل الفرسان في أبوابها

ويجيئك الأهل الذين رأوك

واكتشفوا بها أمجادهمْ

ويجيئك الأعداء إذ عرفوا بها أسلابهمْ

أبداً تضيق الأرض

ينحسر التراب أمام مَدَّ الرمل والأمواج

تسقط عن وجوه الناس أقنعةٌ

وفي شبر من الخصب الشهيد تحوم زوبعةٌ

هي الدنيا التي بقيت

وقد صار اسمها بيروت

وتمرّ من بين المقاصل

نحو رائحة المقابر

نحو قافلة القبائل

حيث تسأل كل جلاد تمنى موتها في السر:

كيف تموت؟

أبداً تضيق معابر النفس الأخير

فيسترد النزع نبضته

ويمسح آخر الشبان في المتراس دمعته

وينهض أول القتلى

وفي عينيه رايات من الأزهار مُشرَعةٌ

وفي شبر تجمَّع من أراد الموت

صار الشبر سارية الخلاص

وقبلة الفرسان والملكوت

أبداً تسير إلى المنافي

تاركاً مدناً تعرَّت منك

فانتُهكت

وأنت تسير،

قلبك حين يرجف باسمها،

قد غافل الأعداء والأصحاب في صمتٍ

ليسرق منهمُ بيروت

في كل أرض

حينما حلَّ الرحال

ستنهض الرايات حاملة سنى بيروت

هيا تعالي يا رياح وعربدي في القلب

هيا إن قافلة من القتلى «مهيأة ومسرعة»

وإن تأوهات الطالق الثكلى،

قبيل الوضع تحت القصف... مبدعةٌ

وإن الرأس يهمس وسط ذاك النطع

هي ورقة من توت

بعض كلامه الياقوت،

كان اسمها بيروت

سقطت... فلم يسقط سوى التابوت.

***

مَن كان يخفي كل هذا الموت عن عينيّ

يدفعني إلى التنقيب في الأنقاضِ

يغريني بقيمة هذه الأعراضِ

قيمةِ أننا ننجو بأيام مهلهلة

نشيل حمولة كسرت ظهور الناس

ثم يبين الأعداء،

حين أتوا لسلب الإرث،

أنّا نحمل التابوت

إني لأغمض مقلتيَّ لكي أضمَّهما على طيف البلادِ

فلا أرى غير السوادِ

أودِّع الأسرى الذين تحمَّلوا نحو المنافي

حيث أسواق النخاسة في بيوت الأهلِ

أبقى واقفاً مثل المدينة

كي نغني للوداع،

ونسمع الصدى المكبوت:

يا راحلين عن الحمى

هذا النوى فضَّاحْ

لا تحملوا معكم إلى

منفاكم، المفتاحْ

إن الذي تبغونه

قد ظل في الشياحْ

والعنق تخرج من هنا

لتقابل السفّاح

***

يا راحلين مع الدجى

قلبي لكم مصباح

إن الغريب المبتلى

صفصافه نوّاح

هل لي عزاء بعدكم

في أدمع التمساح

الأهل كانوا حولنا

سكرى وكنت الراح

إني أراهم من دمي

قد عبّأوا الأقداح

هلّا سألت القصف يا ابنة مالك

إن كنت عاتبةً

وموتي في العتب

يخبرك من شهد الوقيعة أنني

قاومت حتى انزاحت الأستار

عن أهلي العربْ

وشهيديَ المطلوب معروف من الفقراء

عَرَّاه الولاة من الشهادة

ثم غطوا الأمر

إذ رفعوا العقيدة في الخطبْ

وشهيديَ المطلوب مطعونٌ

من الصدر الفسيح بحربة الأعداءِ

مطعون من الظهر المعرى بالقرابة

لم يزل يشتاق للصهواتِ

يعلوها إذا جاء الطلبْ

وشهيديَ المطلوب مستترٌ

يُشيع بكاءه

فيخاله السمَّار نجوى أو طرب

هلَّا قصدت الأهل يا ابنة مالكِ

ونقلت للنخّاس بشرى

سوف يأتيه الزبائن يطلبون مسلَّحين مدجَّنين

ويدفعون لأجلهم إبلاً وأغناماً

ونسواناً تشهَّين الذهبْ

ولتُبلغي أني صرخت الآخ وسط الحربِ:

يا أعداءنا لي عندكم هذا الطلبْ

إن حُمَّ من حولي القضاءُ

وضاق من حولي الفضاء

فقدِّروا هذي الشجاعة

واقتلوني في الوغى

لا تسلموني للعربْ

***

هي ورقة من توت

كان اسمها بيروت

سقطت... فلم يسقط سوى التابوت

بيروت تلك لحافنا

في زمهرير الخائن العربيّ

لكني أنا المغدور

سلمني العدا قسراً إلى بلوى بني عبسِ

بيروت كانت فجرنا

وأنا سأنهض في فضاء الناس كالشمسِ

بيروت تابوت تكسَّر عن رفاتي

فانزويت ألمُّ بعضي

وانزويت لشحذ بغضي

فاستوت فيَّ الهموم كروعة القدسِ
ما من عظيمٍ أتَّقيه وقد عبرتُ النار في بيروت
أنا لست غيماً للرشيد
يجيئه مني الخراج إذا نفيتُ
وإنني الطير الأبابيل
التي تأتي بحقدٍ صارخ
إني أطارد قاتلي
من نام يوم مذابحي
سيظل كابوسي على أحلامه
أمي تطارد قاتلها
منذ بدء الغدر في المستنقع
وأنا أطارد قاتلي
فلتحذروا الريح التي اقتلعت خيامي منكمُ
لم يبقَ ما أخشاه بعد مجازي.
سمكٌ يُجَفّفُ حوله ماءَ
تعلَّم أن يعيش بغير ماءٍ
أو تعوّد أن يعيش مع الغبارِ
لأنهم قد حولوًا الأنهار مثل الأضرحه
لا تعجبوا والماء أشراكٌ
إذا ما رفرفت فيه الزعانف أجنحه

أو أطلقت منه الحراشف

كل أنواع القذائف

واستحال الرمل في قاع البحار له

مخابئ أسلحه

ولتحذروا

إني سأرفع رايتي من وسط هذا الردمِ

أرفع هامتي من عمق هذا الذلِّ

أنهض حاملاً بيتي الذي أبقاه لي زمني

وبيتي كيسُ بحّارِ

وفيه البندقيةُ

والثياب الحمر من جرحي

ومن نزف العدوِّ

ونقع ميداني

غدت كفني

ثيابي لم تعد تخفي عن الأعداء إلا جثتي

وسلوا عدوَّكمُ الذي تخشون

كم قد ذاق في بيروت من بأسي

سيخبركم

بأني قد ألاقي الموت في فرحٍ

لكي لا ينحني رأسي

وبأنني أحيا مع الأمل الكبير

بأن في الدنيا مكاناً لي

وأن غدي يجيء إليّ في ضوءٍ

يبدِّد ظلمة الأمسِ

إن لم يكن لي من غد

فلتحذروا يأسي.

الزهرة

لم تكن خائفه

عندما بدأت تتفتح مزهوةً

بجمال تكاد تضجّ بأوصافه هاتفه

فاجأتها مع الصبح شمس بدفء لذيذ.

فراحت تغادر برعمها كالرضيع.

وقفت تتمايل

حتى لتبدو تهمُّ بركض

ولكن أقدارها لا تتيح

فتبقى على غصنها واقفه

بغتة مسَّها البرد، فانكمشت واجفه

أرسلت نظرة حولها

لتفاجأ أن ليس هذا ربيع

وتفاجأ أن المروج، بكل اتجاه،

مكفنةٌ بالصقيع

وحدها أزهرت

وحدها استُدرجت لتغادر برعمها

لم يكن موسماً للزهور

ولكنها خدعة وانطلت

وسط هذا العراء

ما الذي سوف ينفع لو شعرت أنها آسفه؟

ما الذي سيفيد لو انفجرت بالبكاء؟

لم تكن عارفه

أنها لحظة الدفء خادعة خاطفه

تتورط فيها البراعم وسط الشتاء

وبعد قليل تداهمها العاصفه

سورة الحجر

هذا زمان من حجرْ

الظل وسط الصيف مات من الضجرْ

والسيف وسط الحرب مات من الضجرْ

والماء في الأنهار قد أضحى حجرْ

هذا زمان من حجرْ

إن شئتَ أن تحيا عزيزاً كن حجرْ

واحمل حجرْ

واضرب حجرْ.

***

مطر تيبّس في شتاء قاحل

للغيم جلد صار ينفر كالإبرْ

ورق تحجر في الشجرْ

والريح تخجل حين تأتي دونما مطر

وقد نسيت مع الغيم المطر

فتمر شفرتها على الأشجار تسلخها

تهز جذوع نخل شاحب

وعلى رؤوس الناس ينهمر الحجرْ

حجر يرن على حجرْ

حجر... وينطلق الشررْ

هذا الهشيم،

وكان مزهراً على دمن،

يجفِّفه الصقيع

وسوف يفضحه الشررْ

حجر من الصوان يحمل ناره سِراً

يبوح بها لزند فتى تعبّأ بالمرارة

ولد خلا من أي هم في حساب الربح

أو قلق الخسارة

هل كل يلعب ذلك الولد الذي رشق الحجاره؟

أم تلك آتيه:

هنا خصم

هنا حجر

وبين اللهو والشغب الأبيِّ

تمر أنهار الجساره

وتهلُّ أمطار الحجاره

هل كان يعرف أنه سمكٌ

وأن البحر مثقوب

وهذا الماء يسرق في الدجى

فاختال مذبوحاً برقصته

تسلم «أولاً» في دبكة القتلى

و«شوبش» ثم ألقى بالحجر

رقص

كأن الموت لعبته

كأن الأرض لم تنجب

ولم تنده سواه

فشب يحمل وزرها

ما زال في فمه مذاق حليبها

كرمى لعينها إذاً

سينخُّ وسط الرقص دون مذلة

فيمسُّ ركبتها

وترفع بالفخار جبينه

فيصير ناراً في وترْ

ويميل منتشياً فيلتقط الحجرْ

رقص على إيقاع طبل الموت

أغنية من البجع المودع

دمعة مسحت بمنديل البطرْ

ولد رأى زمناً يقاد إلى المسالخ... ما انتظرْ

ولد يمد يداً إلى وكر الأفاعي

دون أن يخشى الخطرْ

ولد يمد يداً مقاتلة

يشيل بها حجرْ

حجر بلا معنى

ولا لون

يطير إلى الغزاة

يصير «أسود»

والبلاد تصير كعبته

ومن حجر إلى حجرٍ

صفت أرضٌ بتربتها الطهور

فجاءها وجع المخاض مبكراً

في ظل زيتون الخليل

وتجيء معجزة القتال

فينطق المنسي

في مهد من الحجر الجليل

وتتوه قافلة الملوك

يدلها حجر إلى الطفل الجميل

طبخوا له الأحجار كي ينسى مذلته

فعلّمهم بأن حجارة الطوفان

تنفع في مقارعة مع الطغيان

في الزمن البخيل

حجر يغادر أرضه فرحاً

فتنهار السدود

حجر يزاح فترتمي الأبراج

عن أعتى القلاع

وترتمي كل الشواهد عن مقابرها

وينبعث الجدود

ولد رأى وجه الضحية في القضاةِ

رأى الخناجر تختفي

تحت المعاطف وابتسامات الشهود

حجرٌ

وينكسر الزجاج عن الدفيئات

التي حضنت بيوضاً

كي تُفقِّس في هزائمنا

ولاةً نيئين

ولد يرى عريَ الملوكِ

فيعلن الخزي المخبأ

تحت غطرسة الديوكِ

يسجل العري الذي يخشون

نقشاً في حجرْ

ولد يشرِّش في الزواريب العتيقة

كي يُلقَّحَ بالعناد

فلا يصاب بهجرة

أو بانتكاسات السفرْ

يرمي حجرْ

وتجيئه الطلقات تنبح

يستحيل إلى قمرْ

ويعود منهمراً بأحجار

تعلم رميها من هجمة الطير الأبابيل

التي من صوتها تُرهَب

هو وحده يغضَب

هو وحده يلعَب

لم يُلقِ بالاً للأغاريد

التي انطلقت تنخِّيه

وللصرخات حين دنت تحذِّره

ولم يتعَب

هو وحده الكوكَب

هو وحده والكون أعداء

وفي يده حجرْ

حجر الفلاسفة الذي

سيحوِّل العتم المرسَّب في مفاصلنا

إلى ضوءٍ

فيكشف ما تستره القذاره

يتكشَّف الوطن المؤمَّل عن مغاره

هذي بلادي حُوِّلت سوقاً يُباع بها البشر

يتبغدد الغازي

يريح سلاحه

فالسوق تقبله زبوناً

لم يكن إلا على حق

ومؤتمرات أصحاب المروءة يعتريها الضوء

يكشف ما بها من بورصات

والسلاح المشترى بالخبز:

حُوِّل ضد من جاءوا ليشروه

فخبأ من هزيمة عمرنا خبراً

وغلف بالعمى بصراً

وحول عيشنا سقراً

يفيض إلى سقرْ

أو كنت تدري ما سقرْ

لولا فتى يرمي حجرْ؟

هذا زمان من حجرْ

فتعلَّم الدرس الذي

أعطى لنا الولد الفلسطيني

في زمن الحجرْ

إن القلوب تجفُّ رحمتها

وتصبح من حجرْ

لم يبقَ شيء للخسارة... كن حجرْ

لم يبقَ وجه لم يُمرَّغْ... كن حجرْ

لم يبقَ ما تخشاه

كن في العري أوضح من حجرْ

لم يبقْ شيء لم تبَع... فاحمل حجرْ

هذا خسيس كان يسرق قوتنا

فاضرب حجرْ

هذا عدو قادم... فاضرب حجرْ

هذا عدو حاكم... فاضرب حجرْ

لم يبقَ عندك من سلاح نافع

فاحمل حجرْ

لم يبقَ صمت ساتر

فاضرب حجرْ

واصرخ

لعل الصوت يصبح من حجرْ

لم يبق من دمعٍ يريح

فآهِ لو أنَّ الفتى الباكي

حجرْ

شعر

كلّ شيء صار موزوناً مقفّى
صار محدود المعاني
مجلس الشعب،
المسيرات
نظام السير
تصميم المباني
وقفة الناس أمام الفرن
دور النّاس في السجن
مواعيد الولادات
الجنازات
الأغاني
والأماني
كلّ شيء صار موزوناً مقفّى
فلماذا تكتب الشعر الحديث
يا خبيث؟

مصياف

الأهل في مصياف والروح توّاقه
يا ليتني صفصاف أو زهر درّاقه
لأبلّ حلقي الجاف في نبع وراقه
تتجمّع الأطياف في الرّيح كالباقه
والريح في التطواف للدمع سبّاقه
ريح بذاكرتي
وكنت الطفل يركض في الظلام
ملاحقاً بالحشرجاتِ
يسوقني خوفي
عينان تلتمعان
عينا مارد
وبصيص جنيٍّ بعيني هرّةٍ
أأقول: باسم الله أفضح نيّتي؟
أم أُسلم الساقين للريحِ

ريحٌ بذاكرتي

ومصياف التي جاءت تصيِّف في الجبال

تغرَّبت عن عمرها

وتشرّدت في الوعر مثلي

برَّدتها الريح في الصيفِ

ريحٌ... وقاعٌ صفصفٌ

أشباح خيل في الظلام

مكامن بين الصخور

وقلعة تبدو بعتم الفقر كالطيفِ

الميتون استكثروا التكفين والدفن

ارتموا بين الجراح

تكفّنوا بالزعتر البرّيّ والريحان

صاروا ربيع الزيزفون

ولوَّنوا ألق الندى

وشقائق النعمان

مصياف تسخو بالحنين

فتنشر الدفلى كنهر دمٍ

وتسقيه من النزفِ

فيفتِّح اليتم الذي فيها زهوراً

والجراح بها عطوراً

تشرئبّ حرائق الرغباتِ

من أعماق فاقتها وفتنتها

بحب يملأ الدنيا بخوراً

تستفيق بموتها بستان

يستيقظُ العشق الدفين

وراء خط الفقرِ

يوقظ رغبة الشبّان

وترى الصبايا شهوةً للحبّ

تسطع حمرة في جمرة الرمّان

بنت لها أسرار   والصبّ في الطاقه

ولد غريب الدار   والبنت عَشّاقه

يا قاطف الأزهار   حوِّشْ لنا باقه

حرز الهوى يشفي   من عاطل النيّه

والريح تكنس زهرنا المشتول

فوق مقابرٍ حيّه

ريح بذاكرتي

وكانت تستثير الدمع قسراً في طفولتنا

كبرنا الآن

ما للدمع في الذكرى يسحّ؟

أذكريات الريح كالريحِ

أم أننا اعتدنا على نحو الرياح

فهدّأت أوجاعنا

اعتدنا على عيش الكفاف

وصار كلّ يرتضي جسداً بلا روحِ

الوحشة امتزجت بنبض دمائنا

ليريحنا دمع التماسيحِ

ريحٌ بذاكرتي

وخوف قاتم كالغاب

أم ضيف بدا بالباب

والغدر المخاتل قابع في الناب

- أهلاً

لم يسلّم

واستراح هنيهة

وأنا أحدِّق ذاهلاً في وجهه

ويلفّني رعبي

هذا الغريب صديقنا

يأتي ويذهب دونما سبب

وكلّ زيارة للبيت

نخرج في الوداع جنازة

يا ضيف لم نبخل عليك

أطفالنا وشبابنا ارتاحوا لديك

وشيوخنا حنّوا إليك

فعلام تحمل كلّ هذا القهر والبلوى

إلينا في يديك

يا ضيفنا قد جئتنا سرّاً

لتسكن في ربى مصياف

وأنختَ رحلك بيننا كي تبدأ التَّطواف

ياضيفنا لو زرتنا في هدأة

لوجدتنا نحن الضيوفَ الطارئين

وأنت ربّ المنزل المضياف

خد ما تشاء

وإن رغبت فحُلَّ في «برك الدراويش»

الذين سفحت فيض دمائهم

وأقم إذا أحببت فوق «المشهد» العالي

ليبقى ظلّك الأبدي

فوق صدورنا صخراً

وخذ دفء البيوت

فنحن نمضي خلف قافلة الرياح

وسوف يرشدنا إلى المنفى دليلُ

لم يبق من أعمارنا إلاّ القليلُ

والفقر عوّدنا

طوال حياتنا

ما جاءنا إلاّ الأنين الغضّ والبخت الهزيلُ

يا ضيفنا

خذ ما تشاء

ودع لنا ضوءاً على الدربِ

أهلاً

ولم يسمع

وراح يفكّ صُرّته

وينشر أوجه الأحباب في قلبي:

هذا صديقٌ غاب في سجن

وهذا مات من قهر

وهذا تاه في المنفى

وهذا راح في الحربِ

أبكي لذكراهم

وأسأل رحمة الريح الشقيّةَ

أن تليِّن قلبه نحوي

يلملم ما يشاء... ولا يودّعنا

يسير بصمته المشبوه

يمضي تاركاً لي ما تبقّى

من توجّع صاحبي قربي

وذهول أصحابٍ خبا من عمرهم

ألق الهوى وتآلف الصحبِ

داروا طويلاً حول ضوء فاترٍ داروا

غرباء في الأوطان ما فُتحت لهم دارُ

يا مشفقون بحقّ طه المصطفى داروا

هذا الغريب فزاده لمع السراب

يا صاحبي

أين احتجبت طوال هذا القهر؟

كيف نسيتني؟

ورجعت مصحوباً بهذي الريح

تُعول كي يظلّ برقبتي ذنبي

تهوي وما أنهيت يا بطلي الصراعا

حاربت حتى انهرتَ؟

أم كسَّرتَ سيفك واليراعا؟

زمنٌ عجول شدّنا بضجيجه

لم يُبقِ للمقتول وقتاً كي يُوَصّي

للمشيّع أن يبوح بدمعة

لم يُبق للجلّاد من سببٍ

ليمسح ما تعلّق من دمٍ عن سيفه

لم يبق للمفجوع أن يلقي السلام أوِ الوداعا

تهوي فندرك أنّ بارق عمرنا

قد لفّه إهمالنا أو خوفنا

فخبا وضاعا

تهوي لنذكر عتمنا أو موتنا

هل أمحلت أيّامُنا؟

لم يبق إلاّ الموت للتذكير

وهو يصول في الأرواح يحتطبُ

لا بدّ من موتٍ كهذا

كي يلفّ القهر ذكرى

يحتمي في حضنه ناءٍ ومغتربُ

لا بدّ من موتٍ كهذا

كي نقول: حياتنا جفّت

سراباً ناشفاً في الحلق

ما عادت تغرّ الخلق

ما عادت تُطاق

ونقول إنّ الحلم أقصر من شهيق النزع

إنّ العمر أضيق من خناق

لا بدّ من موت كهذا الموت يُبلغنا

بأن الشمس تخسر من أشعّتها

وأنّ الخيل كدَّشها وبغَّلها

التجحشن في فوارسها

فما عادت تصول بهم

ولا تثبُ

لا بدّ من موت العماليق

الذين بمجدهم يتجذّر الَحسَبُ

ليظلّ أقزامٌ مناكيدٌ

فيفتخروا بأجداد عماليقٍ

إذا انتسبوا

فلنعترف قدّام هذا الموت

أنّ الأرض جرداءٌ

وأنّ أوابد الأجداد فينا بلقع خَرِبُ

أنّ السلالات التي كانت فخار الأرض

تسعى لانقراضٍ

ينتهي منها الهنود الحمر

والبطريق

والأشجار

والأنهار

والحيتان

والأكراد... والعربُ

صاروا صغاراً أو كباراً في مقاس العصر
خارج حاجة الأسواق
والأسواق ما احتاجت سوى الجثث
التي فقدت ملامحها سدى
يرسو عليها العرضُ والطَّلَبُ
جثث... وتصلح للبرامج
والإعانات - الإهانات
التي من أجلها تُستعذب الخطبُ
جثث ستربكنا
فنجفل وهلة
لكن يجيء لنا الوداع معلّباً مستورداً
ويسود فينا الصمت حتى في العزاء
وقد تساوى الندب والطَرَبُ
لا فرق بين النّاس والقطعان
حين تُساق للمرعى
تُسمَّن للأضاحي
لا فرق ما بين النباح أو النواحِ
لا صوت يشبه صوت إنسان
سوى هذا العويل المرّ
محمولاً على حزن الرياحِ

الريح تُعوِلُ

تقلق الأموات

إذ هجعوا بذاكرتي

وتصخب في سكون اللّيل ندباً

تسحب الآهات من قلبي

الريح قد عرفت بأنّ الموت مُدرِكُنا

فخافت

وارتمت مثل الطعين

وعبأت ليل الأزقّة بالصياحِ

وتعلّقت أجراسها لترنّ في ليل الحزانى دمعة

كي لا ينام الميّتون مخدّرين

بكاذب النّدب

لا بدّ من ريح كهذي الريح

كي نتأمل المرآة في رعب

إنا هنا موتى

وقد لبسوا حياتهمُ قناعاً

والخوف شيّد حولهم مدناً

فأعلى الفقر فوقهمُ قلاعاً

ساروا وراء جنازة أُعجوبةٍ

كم من قتيل كان في التابوت

كم من ميِّت عزّى

وكم من قاتل أحيا لنا حفل العويل

وقد أتانا بعدما اكتملت فصول المجزرة

ومضى يصلّي طالباً للميّتين المغفره

أنا شاعر أو شاهد متورِّط

لم يلق متكأً له في مفخره

بدمٍ تُرى؟

أم بالدموع ملأت هذي المحبره؟

وكتبتُ شعراً كي أُعزِّي؟

أم رسمت على الدفاتر مقبره؟

نتعمّد الإسراف لنُستِّر الفاقة

الزاد خبز حاف ما بلَّل الياقة

والرِّيح في الأعطاف ذكرى بلا طاقه

يبكي لنا الصفصاف فنحنّ كالناقة

تابوتنا مصياف والقبر ورّاقه

يده كانت رحيمة

يده كانت رحيمه
وأنا كنت وحيداً في العزاء
أنطوي، أخفي غضوني وجنوني
ثم أبكي
قدر ما يحلو لأمثالي البكاء
كنت مرمياً على الأرض التي
لم يبق لي أمّ سواها
يده كانت رحيمه
كملاكٍ حطّ من عطف السماء
حاملاً ما احتجت في أحلك أيامي
إلى بعض العزاء
يدُ إنسانٍ:
تصير اثنين في وجه الفناء
يده تمسح شعري

ثم تربيتٌ على ظهري
يزيد القلب قوّه
وتراخيت لكي أرتاح في دفء الأخوّه
بعد أن لفّعني بالعطف لكي أخفي خوائي
يده تمنحني الهمّة أن أنهضَ
أن أشكره
أكشف عرفاني
للحظات من الحب حميمه
ذكّرتني بلياليّ القديمه
بزمانٍ كنت فيه
عند أهلي وأماني
بزمان كان بالأمس زماني
أرفع الرأس،
فلا أقوى
يدٌ أقوى من الحبّ
وهمهمت لكي يفهم ضيقي
ثم غمغمت لأشكو
ولأرجوه بأني مُوهنٌ
من طول أيّامي العقيمه
لم أعد أقوى على النطق

وصدري الآن مضغوط على الأرض

ثقيل ذلك العبء الذي كان عزائي

ليتني أُفهمه أنّي تضايقت

وأني...

آه... دعني!

وتململت قليلاً

وأنا أعجز حتى عن أنيني

كفّه تقطع في عنقي وتيني

لـم تعد كفّ الذي يشفق أو يرحم

بل كفّ الذي ينهي غريمه

هكذا تبدأ في الصمت وبالحبّ

جريمه

رعويات:

نوستالجيا

إنها ليلة هادئه

مطرٌ... ومزاريب تشرخ

رعدٌ

كأن جبالاً يقوضها غضبٌ

والرياح تئنُ، وتزعق...

لكنها ليلةٌ هادئه

الشبابيك مسنودةٌ

والكبار ينامون بين تغمغم أحلامهم

وبقايا من الجمر في الموقد المتراخي

وأحضان جدتيَ الدافئه

ليلة هادئه

لم يعد عندنا غير هذا الهجوع الأخير

وحكاية جدتيَ الهانئه:

فارسٌ... وحبيبته نائيه

وقصورٌ، وحاشيةٌ، وعدو لئيم

وأجراس سحرٍ على شجرٍ

ورحيلٌ إلى خطرٍ...

فارس ينتهي من مآزقه...

ويؤوب

نؤوب إلى القرية الغافيه

العوالم هادئةٌ

والمزاريب تلمع أصواتها تحت برقٍ

نسالم أقدارنا

تراخى الجبال،

الجفون،

الليالي

وتكمل نايات ريح الجبال

ترانيمها الباكيه

موال

لا يُسقط القاموع إلا عصا الراعي

ولا يصاد الجوع إلا بمقلاعِ

لو مقلتي ينبوع لم تشف أوجاعي

فالذنب لا يبرى   إما نعى الناعي

قد خنتهم قسراً   إذ لم أزل حيا

لو صاحبي من جنب قبري مرةً حيا

لأعادني، وأنا القتيل بحبه، حيا

أين السبيل إلى الهناء، ولم أجد حيا

إلا وفيه نادبٌ غدرَ الصحاب

صطوف

أتَرى هذي القرى؟

إنها الآن مضاءه

كهرباءٌ باغتتها

فأضاءتها

وصارت في «كوانين» تُرى

آه لو تعرفها...

كان هذا الجبل المعتم حاره

كان صطّوف - الذي تعرفه -

يسكر في الوادي

ويخزينا إهانات

ودعوات إلى أي شجار

ثم قبل الفجر،

حين العتم كالكحل،

يلاقي دربه للبيت

في رأس الجبل

فإذا ما ابتدأ اللغط

وصوت الزوجة الحانق

والأطفال يبكون

عرفناه... وصل

إنه يكمل في البيت شجاره

أو ينادي لحصاد اليوم جاره

وإذا ما دبّ صطوفٌ علينا صوته

طالباً عوناً...

أتيناه

اشتغلنا شغله ثم تركناه

ولم نسمح بأن يُقري

وأن يشعل ناره

ثم عدنا في دروب لا تُرى

إن صطّوف الذي تعرفه

(والذي صار لديهم مصطفى)

منذ شهرين مريضٌ

وتوفاه الذي تعرفه يوم الأحد

دون أن نسمع بالوعكة أو بالموت

لم يذهب إلى الدفن أحد

أنا، بالصدفة، أبصرت بأطراف البلد

ورقة النعوة

يلهو، وهو مسرور بها،

هذا الولد

وعليك تتكئ الحياة

كفاك ترتعشان يا أبتِ

وصوتك قد تهدج...

وارتعدْ

بدأت خيانات الجسدْ

ماعاد صوتك زعقة النسر

المطل على الحمائم كالغضبْ

ما عاد يَدوي في فضاء البيت زلزالاً

تجف به المفاصل كالحطبْ

ما عادت امرأة معثرة الخطى

يسطو عليها الصوت

تشعر ظهرها ينحلُّ

في الفقرات تنفرط الزرد

ما عاد يفتك في عزائمنا

فيوقفنا قصبْ

ينقض في أسماعنا رعداً

فتصطك الركبْ

ونحس سطح البيت يرتجُّ

مر الزمان محا الملامح

لم يعد في وجهك الوهجُ

العين ما عادت كما نظرت صقورْ

ما عادت العينان تصطليان بالنار التي

نخشى نقابلها فيلفحنا اللهبْ

بدأ الحنان يطل من فسحات غيمهما

وفي الجفنين قد سكن الرمدْ

كان الحنان وراء تألق العينين وحدهما

تستر واحتجبْ

غامت أمامك فسحة الدنيا

وضاعت نبرة الأصوات فيها

والعظام تلين

تعجز عن سندْ

وغرقت في الصمت الطويل

كأن جسمك قد رقدْ

بدأت خيانات الجسدْ

ضحك الصغار عليك،

وأنت ترجف،

واستزادوا الضحك

حين تعثرت

كلماتك الأولى

على شفتين قد غطاهما بعض الزبدْ

وتعثرت أفكارك الأولى

على عتبات ذاكرة مهرأةٍ

وحين تعثرت قدماك وانداح التعبْ

ضحكوا عليك

ما عاد ينفع أن نزيد عليك

جرعات المرارة في دوائك

فار الحليب

وفاضت النسوان نهراً من إنائك

بدأت خياناتٌ كثيراتٌ

وأولها خيانات الجسدْ

بدأت خيانات الذين نسوا

عُلى ما يومها كنتا

الظهر مال،

فصرت تحتاج العصا

قد كنت أمس،

عليك تتكئ الحياةُ

لكي توازن ما تخلخل واضطربْ

بدأ الجبين يميل نحو الأرض،

كان يضن حتى بالصلاة فما سجدْ.

***

مُتْ يا أبي.

مُتْ كي ترى حبي،

الذي أخفيت عنك طوال عمري،

في رثائك

الآن مُت...

لا ترتشف تلك الحثالة من وعائك

كن حاسماً،

سيفاً مضى كي يحسم الوقتا

مُتْ واقفاً...

إغربْ كما أنتا

أو مُتْ كما كنتا

أمسك بصورتك التي في النسل أنبتًا

أمسك بما غرست يداك من المهابة في الصدور

أرِهم إذاً كم تخسر الدنيا إذا متًّا

أرهم بأنك تستطيع بهمّة

أن تنتقي موتاً

فكلما خلقت تموتُ

ربك لم يقل:

كن مثلما كوَّنتُ غيرك قبل خلقك

أو كما خلق الذين أتوا إلى دنياي بعدك.

بل قال: يا عبدي أريدك أن تكون

فكن كما أنتا.

ليصير هذا الكون عبدك.

مُتْ يا أبي

مُتْ مستريحاً،

نحن أشعلنا مشاعلنا

من اللهب الذي كنتا

أطفئ فتيلك

قد أضاء الدرب ما يكفي

ونخشى أن يغطيه الدخانُ

ما عاد يعطينا الزمانُ

ما يستحق عناء قلب من نبي

أو ما يضاء له المكانُ

مُتْ كي أراك

قد آن أن ترتاح...

لكن لم نقلها يا أبيَ

مُتْ كي نقول،

وكلنا أسف،

خسرناه،

كي لا نقول أراح وارتاحا

مُتْ كي أراك

أو مُتْ لكي أكبر

وتظل ملء البيت فواحا

النسر

ذلك النسر في بيتنا مذهل
جاء حين أضاء الصغار تطلعهم في الظلام
واقتنيناه مثل دمىً في المنام.
كان فخراً،
وصار شعاراً
به نتناهى، نبز الأيام
بغتة رف جنحيه،
ضاق به البيت
حوّل كل أثاثٍ لدينا حطام
صار عبئاً ثقيلاً علينا
وفي بيتنا صرت أشكو الزحام
سقفنا واطئ
والفضاءات ما بين جدرانه ضيّقه
وهو لا يدخل القفص المقتنى لينام

وهو حين يرى كارهاً

لا يداري

فيفضحنا

إذ يصيح كما نشتهي أن نصيح

كما كان كل صريح لدينا يصيح

ويعلن ما اتفقنا على ستره من

خصال

فلنقصَّ الذي فاض من ريشه واستطال

ولنقص انعطافة مخلبه

وتقوّس منقاره

ولنخلّصه من كبرياء النسور

فنحن الذين يضايقنا النسر

صار يليق بنا أن نربي الحمام

لأجل السلام.

فننام بغير كوابيس.

تبقى الأمور على ما يرام.

بقجة حياة مفلوشة

حين تعلموا استخراج الخيوط من الدم
سهل عليهم نسج حكايتي.
ولكن أين سأذهب
بعد أن يغلق الحكواتي ذاكرته،
ويلف المدخنون نراجيلهم؟
كيف أعيد ترتيب بقجتي المفلوشة؟
وأين سأضع العباءة والطربوش
..والتمائم والتاريخ؟
أين أذهب بباقات الأحلام الذابلة
والأناشيد المعلقة مع الباميا والثوم؟
ماذا أفعل بهذه الشعارات المعلبة
التي انتهت مدتها؟
وأين أجد ظلي الذي كان يتمدد بأريحية
أمامي على الرمضاء،

وكان يقتفي خطواتي، ويتسلل ورائي

ككلب الصيد أو المخبر؟

كم حاولت جعله يتخلّص من خجله

ويدخل معي إلى البيت.

ما زلت أحاول الصيد.

ما زالت أعصابي تنشدّ مع خيط سنارتي

وأنا أرى الأسماك تتلاعب

وراء مرآة الماء

والنساء يتمايلن وراء زجاج النافذة،

والأوطان تلمع في صحراء الخطابات.

الأسماك والنساء والأوطان:

كل ما فاض عن الحاجة...

وأنا لم أوفَّق بعد

لما هو أكثر من اهتزاز الخيط.

(أم أن يدي هي التي كانت ترتجف؟)

أنتقي كلمات القصيدة

مثلما أشد القوس، وأسدد.

أتجمّل كلما شئت الخروج.

أنسلُ خيوط المطر

لأحيك برقعاً لأخلاقي.

أشبك البرق لأطرز وجهي المتغضن.

أمشط الريح باروكة لصباحي

ثم أسأل المرآة رأيها،

مثل فارس يتأكد من سلاحه

قبل الخروج إلى المبارزة.

***

حين منعوا التأبين والتعزية

بقيت هذه القصيدة العنيدة

وهي تعرف أنها غير مقروءة

هي التي حملت ما تيبس من الدماء

وما تناثر من الأشلاء.

ظلت قادرة على التذكر

وإن عجزت عن النطق.

وظلت ترفض الغفران

وإن عجزت عن الانتقام.

هذه القصيدة لا تبالي بالقصائد الأخرى

اللواتي يتبذلن بالعشق والموضة والأحلام

ويتبرجن للترفيه عمن يملكون المال والجاه

ويملّون من حديث السياسة التي يصنعونها.

ها أنا أستقيل من الخوف

والحب والشهوات.

أستقيل من المطامح.

وأحتفظ بتقاعدي من الأحلام.

أنزف وأستلقي مستسلماً ليأسي:

أفعى تحتضر في وكر قصي،

أو غزالاً يصل المضائق المغلقة

وهو يشم عرق الكلاب التي تطارده

ويرى أصواتها تقتحم مخبأه.

فيجلس مسترخياً

وهو يخلع قرنيه.

***

عزلتي ليست لإله.

هي عزلةُ مغتصَبةٍ بين عاهرات.

تحنُّ إلى كلمة حب أو عزاء

وسط صخب المبغى.

من سيجبّرني

أنا المكسور منعاً لالتقاء الساكنين؟

أنا الذي أنكرتني المرايا...

واستنكرتني

أنا الذي تطلع إليّ أولادي...
فصاحوا فزعين.

***

هذا النقص المعيب في حياتي
سأرممه بالكذب أو بالخيال...
بالشهوات أو بأحلام اليقظة...
سأتقن تقديم ألاعيبي شعراً...
أو فناً جميلاً آخر.
سأؤمّن الخبز
حين أقامر بهذا الدم.
كان من الممكن لحياتي أن تكون كافية
وعلى مقاسي
لولا أن خيالي كان يوسّعها دائماً.
منذ أن فوجئت بسؤال:
ماذا تريد أن تكون حين تكبر؟
وأنا ألف حياتي بالخرق لأكبّرها.
أوسّع عمري سراً مثل خلد.
كل يوم أنطلق في السراديب المعتمة
التي يجوبها بساط الأحلام.
ومشكلتي هي أنني سأعود

لأصبح أكثر ضيقاً بحدودي

آه...

لو أن كذبتي تشمل الأرض والدنيا

والتاريخ واللوح المحفوظ...

***

ولماذا يظل هذا السراب يلمع إذاً؟

معجزة في قانا

أكان ذلك في قانا؟
ولو...
كيف تنسى ذلك؟
طبعاً في قانا.
قانا التي ذكرتها الأناجيل كلها.
تلك التي كان فيها العرس والمعجزة.
الخمر والسمك.
والمسيح.
ألا تذكر؟
كان هناك عرس
في قانا دائماً هناك عرس.
عروس مشعة عذراء
وعريس جميل ووسيم
ذكّر أكثرنا بالمسيح.

والعرس جاهز دائماً لأن يكون مهرجاناً:

مدعوون

وخمور

وصبايا يحلمن

بأن تكون الحفلة التالية عرسهن.

ونساء يفرحن

وهن مستعدات لكل الاحتمالات.

وشباب مزينون بشباكهم الجاهزة

لاصطياد الاحتمالات.

شباب لا يقلّون جمالاً عن العريس

الذي يشبه المسيح

كل منهم يمكن أن تعشقه أخته.

كل منهم كان يمكن أن يجلس مكان العريس.

وأطفالٌ يزرقون كالأسماك

بين أرجل المحتفلين.

سعداء بأن يُسمح لهم بالسهر اليوم.

عرس يليق بذلك العريس الجميل

عرس مؤهل لأن يصبح مهرجاناً.

عرس يليق بقانا التي لا تلد إلا المعجزات.

وهذه المرة أيضاً...

المدعوون كثر

وليس هناك ما يكفي.

ونحتار كيف نبيّض وجوهنا مع هذا العدد كله؟

ولا ينقذنا إلا معجزة من نبي.

دائماً نحن في حاجة إلى معجزة

وإلى نبي لينقذنا.

وبدلاً منه...

يدخل ذلك الشاب الغريب بغتة.

دائماً يتأخر النبي

أو لا يصل

ويجيء الغريب.

وكان هذه المرة، أيضاً، يحمل بندقية.

جال بنظره بين الموجودين

كأنه يبحث عن شخص محدد

أو يبحث عنا كلنا.

(يبدو أننا متشابهون فعلاً)

ولم يكن معه إلا مخزن واحد.

تصوّرْ!

مخزن واحد فقط.

وكان هذا يبدو مثيراً ومبهجاً.

فليطلق النار احتفالاً

حتى لو لفت أنظار بعض النساء أكثر منا.

حتى لو سرق منا إعجاباً أو مغامرة محتملة!

وبالفعل.

أمسك بندقيته وبدأ يطلق...

على العريس الذي يشبه المسيح أولاً.

وأكمل إطلاق النار علينا كلنا

ولم يكن معه إلا مخزن واحد.

وبه قتل الجميع.

تصوّرْ!

بمخزن واحد فقط.

ولم يفرغ المخزن

ولم ينقص طلقة واحدة

حتى بعد أن قُتلنا كلنا.

الموت وحده

هو الذي يبيّض وجوهنا بهذا المقدار.

لا تقل لي إنه ليس عصر المعجزات.

حتى الذين يتشبهون بالمسيح

أو يطاردونه

ما زالوا يحققون معجزات من هذا النوع.

فكيف حين يقوم المسيح ذاته؟

أنت لا تعرف قانا

إنها لا تقبل بما هو أقل من معجزة.

أول حرف من اسمه الوطن

علي الجندي (١٩٧٨)

لم يبق إلا المزاح

وقليل من الضحك المكرور...

أحدد صديقي أولاً

والبكاء في المرة القادمة:

كدمعة ملفوفة في كيس شفاف

معلق على أهدابنا.

لا يسقط ولا يجف

ولا يسمح لنا أن نذرفه.

وحتى بعد أن نتخلص منه

يظل كالحزن بعد البكاء

وكصداع السكر بعد السكر.

***

مضجر

لا يكلمني في السياسة

يقول لي دائماً: أهذا وقتك؟

ويقول أهذا وقتك؟

للصباح، وللموت أيضاً.

لكنني أعرف ألمه حين يقرع كأسي

ويبتسم داخل كيسه الشفاف.

***

لغز مكشوف لا يحله أحد.

وهو سادر

يحلل الحرام

ويحلل الألم إلى عناصره الأولية

ويفرده في الذاكرة

كؤوساً ونساء وخيبات

وجرعة من الحنان المكابر.

***

ذلك الرجل الذي يعصف به الشوق للرحيل

وقدماه مقيدتان بالتراب

يتكئ على وجعه

ويسافر شعراً

ودائماً يصل إلى أصدقائه
المقتولين أو المسجونين.

***

بخبث أبيض
تمنيت لو أنه يموت قليلاً
لأعرف كيف سيكون غيابه
وكيف تخلو الحياة منه.
لكنها أمنية صعبة
فليس هناك موت قليل.
وقد علمتنا المدن المحتلة في الهزائم
وخيبات الشيخوخة المبكرة
أن الأشياء الجميلة
لا تعود أبداً إن ذهبت.

***

ويزول الخاطر سريعاً
حينما يضحك وكأنه يتدحرج.
ثم يسترد أنفاسه
بتنهيدة تعبر جسده
وكأنها صاعدة من كعبه.

***

جسده يشيخ

لكنه لا يترهل

لأن عروقه مسكونة

بمدن محتلة،

ونساء لم يصل إليهن

بأكثر من الكلام،

وبجثث شباب عرفهم جيداً قبل الحرب.

***

كل ما حوله ينابيع

ترسب فيه الأحقاد

وتسرب إليه الناس والهزائم

وغبار المدن

التي كانت وطناً جميلاً.

حتى الهواء الذي يلامس التجار

وحديثي النعمة

والنجوم التي تلمع كالذهب

على أكتاف جنود احتلال

بملابس وطنية

كان يصيبه بالزكام

أو يصيبه - كما يقول -
بالأليرجي.

***

مسكين
كم كان يتعب
لكي يغطي الدمامل
التي يسببها هذا الهواء القذر.

***

لم يعرف أحد
كيف يغضب بحراً
ومتى ينصاع ماءً.
يظل دائماً كميناً
من الحب والألم والشتائم
وكميناً من الشهوات
يتربص بأي شكلٍ أنثوي.

***

عالم غادر:
الشهداء، كلهم، يموتون
ليشعروه بضآلة حياته.
والشباب كلهم يشبون

ليشعروه باقتراب نهايته.

والنساء، كلهن، يعشقن ويتزوجن

ليشعرنه بأنه لا يملك شيئاً

رغم التفتح الدائم في مسامه

كلما سمع أخبار الأرامل

في الحارة المجاورة

أو القارة المجاورة

أو التاريخ السحيق.

ولذلك فإنه يصدر تنهيدة أخرى

تخرج من كعبه.

***

تعال يا صديقي

سنسكر لكي نغتاب

ثم نتشاجر...

وغداً صباحاً

يجب أن نلتقي بصفاء

في هذا الغيتو

المخصص لنا

وللشرف.

***

وإلا... فمع من نسكر ونتشاجر؟

ومن سيسمع قصيدتين بكأس عرق؟

ومع من سنحقد على هذه الأوبئة؟

ومن غيرنا يدفع خلو رجل

لمطاع شعري جميل مثل:

«بغتة...

يهبط الحزن مثل الضباب»؟

وعمن سيكتبون تقاريرهم؟

ماذا نفعل يا صديقي

ونساء العالم يرتكبن خياناتهن لنا

مع أزواجهن وعشاقهن؟

ماذا نفعل

والخيانة في الكأس والهواء والضوء؟

ماذا نفعل

وليس للنساء كلهن فم واحد؟

والموائد لا تؤكل كلها بلقمة واحدة؟

سنتابع بلاغتنا إذاً.

ومثلما اشترى ناظم حكمت

باقة من الخبز

سنشرب الساعات والأقلام والكتب.

وسنهمس شجونا

حول لغز جارح اسمه الوطن.

***

أجسادنا المترعة بالشهوات

وبالأحقاد والشعر

عاجزة عن حمل سر جديد.

فالأسرار التي تخجل حامليها

ليس بينها حبنا وشجارنا

وذكرنا للأعضاء التناسلية

أو خياناتنا الزوجية

في عالم السرقة والقتل والخيانة الوطنية.

***

إذاً...

كل شيء قابل للتغليف

بضحكة فارغة

وبترديد تعابير ممجوجة

مثل: «مرحباً يا صباح»

«عاشت قضية الأمة»

طاخ... طاخ... طاخ...

فبعد قليل

ستأتي الوحشة ولا يبقى بعد هذا المزاح

وبعد هذا الضحك والسكر

إلا الشعر

والوطن السري.

عزف منفرد

مرة أخرى وحيداً
مرة أخرى سعيداً
عندي الكأس،
على حافته ترسو أمانيَّ وفُلكي
لست أحتاج إلى الساقي
ولا أن أدّعي زهدي ونسكي
يطفح الكأس بما فيه
فأرتاح إليه
وعلى صفحته أبصر ما قد أشتهيه
لم أعد في حاجة للندماء
ليس لي عاشقة تدفئ قلبي
وتؤاويه شريدا
سأكون اليوم حراً وفريدا.
ما أرى في العتم،

مما لا يراه الناس،

ملكي

ثم لن أحتاج تصديق أحد

حين أنضو عن غموض الليل أستار السواد

وأرى ما يختفي عني

وما أحتاج أن أبصر منه

ثم أحكي

ما أرى من معجزات.

سوف أجتر الأماني

والأغاني

وأعاني

حسراتي حين أندمْ

لنساء لم أعانقهن،

أو عانقنني دون اشتهاءْ

سأداري راقصات خارجات من جفوني

سأرى رتل نساءْ

فأعري من أشاءْ

ليس لي من أصدقاءْ

ليس لي من أحد أكمل كأسي معه

دون عناءْ

لست أحتاج إلى من سيغنني

إنني أطرب للصوت

الذي أُطلِق في تعتعة السكر

وأرضاه غناءْ

ولذا أنفرد الآن بنفسي

علني أحكي وأحكي

وعلى نول ظلام القلب والوحشة أبقى

مفرداً أنسج أهلاً ورفاقاً ونساءْ

وبهم أبدأ ما أحسبه ليلاً جديدا

كنت أعني أنني معْ هؤلاء

أبدأ العمر الذي يبدو جديدا

أبدأ الليل كما أنهيه فرداً ووحيدا

لست أخشى أن يوافيني البكاء

ثم لن يخجلني أن أدفن الرأس

على أي غطاء ثم أبكي.

هواجس الموت

وأيقظني الموت ذاك الصباح
على نبضة القلب داس فأيقظني
وهلة ثم راح.
كنت أغرق في النوم طفلاً
ومرر برقاً على شرفة العمر،
حتى فتحت له باب ذاكرتي
فتزوبعتُ.
مرر نصلاً على ما تُعري المسرات
من عصب وعظامْ.
وجاء الذي سوف ينقذني
يعيد إليّ حياتي الحطامْ
ويرجعني نحو زنزانة العمر
يسدل لي فوق عينيّ ستراً
ويرجعني للظلامْ.

**

تمهَّلْ صديقي

تمهَّلْ فإنك تعرفني

لقد ماشيتك الأخطار طوال عمري

كنت عاشقك الذي ما زال عذريا

يؤجل حلمه بلقاك

موعده المحتم

كل يوم

أحقق إنجاز أني لم ألتق بك بعد

كل ليلة أحمد الصبر الذي

كان يعصمني.

هي هزة منا

وأسقط عن غصون الحلم توتا

هي رغبة أن أكمل الإنشاد ثم أموتا

إنا عريسان،

قد قرئت فواتحنا

وليلتنا تطل.

علام هذي العجلة؟

بقيت كلمة لم أقلها

وخصم لم أشتبك معه

وفتاة لم أغازلها.

**

مات

لم يعد أي مكياج

يستطيع إخفاء وجهه الكريه

ولا أية عطور

تغطي نتن مخازيه

ولا أية تلفيقات

تبرر كرهه للبشر

ولا أية مجاملات أو رهبة

تخفي كره البشر له

مات

فذابت ثلوج الكتمان

وسالت معها فضائحه

سوف يلوث الدنيا بجيفته

مثلما لوثها بسيرته

فلنسرع بدفنه.

**

ذلك الميت الغبي

لا يعرف أن تكتمه لم يعد يفيده

فقد انتهى كل فضول لدينا نحوه

وأن لعبة إغماض عينيه

لا تعفيه من أننا نراه

وليكن أنه لا يسمعنا كما يتظاهر

فهو الآخر لا يقول شيئاً.

كل هذا طلل

لم يعد في البساتين زهر ولا في الشفاه قبل

تتمدد فينا الأغاني بكاء

ويمتد حبل الملل

أي صمت يهل من القول

أي سكون يفيض من النهر

أبكي

وتملأ قلبي سكينة راع أصم

إعراب

يتبين أن المكسور هنا مجرور

وعلامته رائحةٌ تخرج من كسر فيه

والمجزوم علامته صمتٌ وسكون

لكن يأتينا مجزوم مجرور أو مكسور

منعاً لجوار خطر مشبوه

فتلاقي اثنين على أمر

سيثير الشبهه

حتى لو كان جوار سكون لسكون

يا أبنائي

للخطر المحدق أبواب وفنون

وأنا أشرح كي أغلق كل الأبواب

في وجه الداعية النصّاب

طبعاً نصّاب

وعلامته في النصب الفتحة في آخره

والفتحة أحدثها في الوعي

فهذي الفتحة كالثغرة في سد مناعتكم

يكفيه من النصب التصريح:

«افتح باباً تأمل أن تأتي منه الريح»

نحن نصحنا أن تغلق باباً تأتي منه الريح

كي ترتاح لدينا وتريح

فإذاً صاحبنا نصاب خطر مجنون

يدعو للظلمة

فيما ندعو للتسبيح

يغوي ولداً في العشرين

والولد الواهم يسمعه

حين يقول له

إن الضمة تنفعه

يا عفو الله

ولد ينشأ في التقوى

منشغل بالمجرور المكسور

يدعوه لكي يقفز فوق السور

كي يضمن أي جوار بين اثنين

«جوار من صنع الشيطان ولو بدآ بسكون»

إنا أفتينا أن الضمة ممنوعه

هذي آخر حركات الإعراب

كل كلام عن إعراب آخر

إعراب عن رأي

إعراب عن إعجاب

إعراب عن ضيق

بدعٌ تأتي من قوم أغراب

والبدع ستدفعنا أن نغلق كل الأبواب

من باب السجن إلى باب المحراب

زيزفون

زهر أبيض
قلبه أصفر
يؤج روائح عاطرة
فكأن الأريج له مئزرْ
تنتشي العين منه
كما ينتشي المنخرْ
يدوم قليلاً،
ثم يذبل، لا يثمرْ
يرتمي في التراب
ولا يبذرْ

فهرس المحتويات

خارجي قبل الأوان 05

بقلم: صبحي حديدي

مختارات ممدوح عدوان 19

ديوان «الظل الأخضر»

العَائد 21

الجدران 23

ديوان «تلويحة الأيدي المتعبة»

يوميات الحطيئة 28

غزل دمشقي 31

ديوان «الدماء تدق النوافذ»

5ـ الحصار 35

6ـ مهرجان دموي للفقراء 40

ديوان «أقبل الزمن المستحيل»

4ـ سيأتيكم زمان 49

بردى 54

ديوان «يألفونك.. فانفر»

لو في الأصابع ذاكرة 60

نقوش تدمرية..72
ديوان «أمي تطارد قاتلها»
صوت يبلله الحزن 77
ديوان «للخوف كل الزمان»
تأبين صباحي..85
وداع دون رحيل......................................91
ديوان «لا بدّ من التفاصيل»
القصبة 94
لا بدّ من التفاصيل..................................100
ديوان «وهذا أنا أيضاً»
يعسّل التين فيك....................................112
صور مبعثرة 118
ديوان «والليل الذي يسكنني»
غيوم لصيف الجسد.................................124
زائر الليل...131
ديوان «أبداً إلى المنافي»
وحدك، الآن، قليل 134
قصيدة ينقصها شهيد 140
ديوان «لا دروب إلى روما»
الزهرة...172
سورة الحجر..174
ديوان «للريح ذاكرة... ولي»
شعر..183

مصياف 184
يده كانت رحيمة 196
ديوان «وعليك تتكئ الحياة»
رعويات.. 199
ديوان «كتابة الموت»
وعليك تتكئ الحياة.. 204
النسر.. 210
ديوان «حياة متناثرة»
بقجة حياة مفلوشة 212
معجزة في قانا.. 218
أول حرف من اسمه الوطن.. 223
ديوان «قفزة في الهواء»
عزف منفرد 232
هواجس الموت 235
إعراب 239
زيزفون.. 242

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع





خارجي قبل الأوان

كم حيّرني فيك انشقاق طاقاتك الإبداعية عن مسار التخصص، كعازف يحتار في أية آلة موسيقية يتلألأ. لم أقل لك إن واحداً منك يكفي لتكون عشيرة نحل تمنح العسل السوري مذاق المتعة الحارق. بحثت عن الفريد في الكثير، من دون أن تعلم أن الفريد هو أنت. وأنت أمامك بين يديك. ألا ترى إليك، أم وجدت نفسك أصفى في تعددها، يا صديقي المفرط في التشظي ككوكب يتكون.

فصصت الثوم للقصيدة لتحمي شرايينها من التصلب. فالشعر، كالجسد، في حاجة هو أيضا إلى عناية طبية، وإلى فصاد كلما أُصيب الدم بالتلوث. آه، من التلوث الذي جعل الإيقاع نشازاً، واستبدل حفيف الشجر بموسيقى الحجر، واعتبر الحياة عبئاً على الاستعارة!

لكن هذا لم يهمك. لأن الحياة لا تُوهب لتعرف أو تعرض للنقاش، بل لتُعاش... وتعاش بكاملها، وتُلتهم كقطعة حلوى إلهية، أو شفتين ناضجتي الكرز. وقد عشتها كما شئت أنت، لا كما هي شاءت. أحببتها فأحبتك. وشاكست ما يجعلها أحد أسماء الموت، في عصر القتل المعولم الذي يمنح القتلى قسطاً من الحياة لا لشيء... إلا لينجبوا قتلى.

محمود درويش في رثاء ممدوح عدوان







الغلاف: منير الشعراني